**الحديث الأول**

**القصد من الزواج**

"ولكن لكي تجتنبوا الزنى فليكن لكل واحد امرأته" (1كور 7: 2).

أريد اليوم أن أقتادكم أيضاً إلى نبع العسل، هذا العسل الذي لا يعافه المرء مطلقاً، لأن هذه هي طبيعة أقوال الروح القدس. وعندما تُروون أنفسكم من هذا النبع، فهو الروح القدس الذي يكون بالحقيقة في أفواهكم. بل ماذا أقول؟ أن حلاوة العسل ليست شيئاً أمام حلاوة الأقوال الإلهية. وهذا ما يقوله صاحب المزامير: "ما أشهى كلماتك يا رب في فمي! إنها أشهى من العسل". إنها أحلى من العسل، وأثمن من الذهب والحجر الكريم، وأنقى من الفضة. هذه هي الأقوال الإلهية. ويقول أيضاً صاحب المزامير: "أقوال نقية، فضة مصفاة بالنار مصفاة سبعة أضعاف".

والواقع أن العسل قد يمرضنا إذا نحن أكثرنا منه ونحن في غنى عنه. أما كلام الرب، فيمكن دائماً أن يشفينا، ولو كنا مرضى. ومن جهة أخرى فإن العسل يفرغ بالهضم، أما كلام الرب فكلما أكل المرء منه ازداد تذوقاً جديداً، وأحدث عجباً في النفس سواء ذاقه الإنسان بنفسه، أو أعطاه للآخرين لكي يذوقوه. وأخيراً في حين أن التخمة عن كثرة المآكل تزعج المدعوين على المائدة، نرى أن الامتلاء من الوعظ ومن الكتاب المقدس الذي يفيض من القلب، ليس من شأنه إلا أن يزيد في حسن طعم الأقوال الإلهية وسرور السامعين. ولذلك فإن داود النبي الذي كان يتذوق باستمرار هذا الطعام الروحي، كان يقول: "فاض قلبي كلمة صالحة".

وبالمقابل يمكن أن يخرج من قلبنا كلام رديء. كما أن الفم ينم عن طبيعة الأطعمة التي تناولها على المائدة، كذلك ينم اللسان عن طبيعة الكلام الذي تغذينا به. عندما تشهد المسرح تعود منه وأنت تردد أنغام الأغاني الحلوة التي سمعتها. وعندما تذهب إلى الكنيسة فإنما تغني في نفسك التعاليم الدينية. وعندما يقول لنا النبي أن كلاماً صالحاً فاض من قلبه، كان يصف لنا طبيعة الأفكار التي كان يتغذى بها عادة.

ولهذا فإن الرسول بولس قال أيضاً: "فلا تخرج من أفواهكم كلمة بطالة بل على العكس فلتخرج كل كلمة صالحة" (أفس 4: 29). وماذا يجب أن نفهم بالكلمة الفاسدة؟ فتشوا عما هو جيد تجدوا ما هو فاسد. تحديد معنى الأولى يعطيكم تحديد معنى الثانية. ولست أنا الذي أعطيكم التحديد بل الرسول بولس نفسه إذ يقول: " كل كلمة صالحة قادرة على أن تبني الكنيسة"، حتى يفهمنا أن الكلام الصالح هو الكلام الذي يبني القريب. وإذا كان الكلام الصالح هو الذي يبنيه فالكلام الفاسد هو الذي يشككه ويهدمه.

وأنت نفسك، إذاً، أيها الصديق العزيز جداً، إذا كان عندك شيء تقوله يمكن أن يصنع خيراً لمن يسمعك، فلا تدع هذه الفرصة التي تسهم في خلاص الآخرين. وإذا لم يأت على فمك كلام يبني الآخرين فتحفّظ جيداً من التلفظ به: لا تشكك قريبك قبيح هو الكلام الذي بدلاً من أن يبني السامع يهدمه فإذا وجد إنسان يهتم بالفضيلة، فكلامك ذاك يحوّله عنها. وإذا كان يعيش بعيداً عن الفضيلة فكلامك يزيد في إبعاده. حتى ولو توصلت، لكي تسر الآخرين، إلى أن تفلت منك نكتة سفيهة، فأمسكْ عنها: هذا أيضاً كلام فاسد هذه ليس من شأنها إلا أن تدفع إلى القذارة المتكلم والسامع، وتضرم الشهوات الرديئة في هذا وفي ذاك. فكما أن الحطب هو غذاء النار، كذلك الكلام البذيء هو غذاء الدنس والشهوات الرديئة.

ولهذا السبب، لا يجب أن نسمح للساننا بأن يقول كل ما يخطر في فكرنا، بل على العكس يجب أن نستعمل كل انتباهنا وهمنا في أن نبتعد عنه ونطرد كل فكر رديء. وإذا انزلقت صدفة، فكرة شريرة إلى ذهننا، فيجب أن لا نسمح لها بأن تمر على شفاهنا ولا أن تخرج حيث يجب أن تختنق.

تأمل بما يحدث للحيوانات المفترسة التي تقع في الحفر والحبائل. هذه إذا نجحت في أن تنفك وتبرز إلى الخارج، تخرج وهي أكبر شراسة ووحشية. ولكن على العكس إذا منعت من الخروج، فإنها تقتل داخل الحفرة براحة وسهولة. وهكذا الحال مع الأفكار الرديئة. إذا انفلتت من الفم، وذاعت بالكلام، تهيج ذاتها بذاتها. ولكن على العكس، إذا غطاها الصمت فإن لهيبها يخمد ويموت بسرعة.

أتحس شهوة رديئة صعدت إلى نفسك؟ لا تفكر بها، ولا تتكلم عنها: فإنها تنطفئ من ذاتها. أعندك فكرة قذرة؟ فليبق لسانك نظيفاً، على الأقل، ولا تدع القذارة التي صعدت إلى رأسك تنتشر خارجاً، لأنها لا تخرج خارجاً إلا لجلب الشقاء عليك وعلى الذين يسمعونها. ثم إني أرجوك وأنصحك بنفس الوقت ليس فقط بأن لا تقول شيئاً رديئاً، بل بأن لا تستمع إلى الكلام الرديء وأن تتعلق بالناموس الإلهي حيث يقول: "طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الكفرة وفي طريق الخطأة لم يقف، وفي مجلس المستهرئين لم يجلس، لكن في ناموس الرب هواه نهاراً وليلاً" (مز 1: 1-2).

إذا كنا، في معاطاتنا مع العالم، نسمع كلاماً جيداً يرد على بعض الألسنة، فليس هذا إلا قليلاً جداً، ولا يشكل واحداً من الألف. وعلى العكس من هذا، ففي الكتاب المقدس لا يوجد كلام إلا يمت إلى خلاصنا وكمالنا بصلة. ويشهد أيضاً على هذا الكلام الذي لفظناه في مطلع حديثنا.

ماذا يقول بولس الرسول إلى سكان كورنثوس؟ "وإجابة على ما سألتموني أقول لكم: إن من لا يتزوج يفعل حسناً، ولكن لكي تجتنبوا الزنى فليكن لكل رجل امرأته، ولكل امرأة بعلها" (1كور 7: 1،2). فالقديس بولس يتكلم هنا عن الزواج ونواميسه بكل صراحة ورصانة.

ولماذا يتحاشى الخادم التكلم عن الزواج حين يكون المعلم قد شرفه بحضوره بنفسه ولم يتأخر عن تقديم الهدية للعرس. (وأية هدية؟ هدية أجمل من كل الهدايا: عجيبة تحويل الماء إلى خمر)؟ أي شيء شر في الزواج؟ الشر هو الزنى، الشر هو العهر. والزواج إنما هو الدواء.

فلا نُهن إذن الزواج بمحافل الشيطان، بل فلنتشبه بأهل عرس قانا الجليل الذين دعوا المسيح إلى عرسهم وأجلسوه في وسطهم. قد تقولون كيف يكون هذا وليس المسيح عندنا؟ ولكن عندكم كهنة. "من قبلكم فقد قبلني"، هكذا قال لتلاميذه (متى 10: 40).

فإذا أنتم أبعدتم الشيطان ومواكب الشيطان من أعراسكم، أعني أغانيه الفاحشة، وأشعاره البذيئة، ورقصه الخليع، وكلامه الشائن، وفجوره المخجل، وضحكه السفيه، وإذا أنتم أحللتم مكانه خدام المسيح، فتكونون قد استقبلتم المسيح ذاته في وسطكم مع والدته وتلاميذه لأنه قال: "إن من يعمل إرادة أبي فذاك حقاً هو أخي وأختي وأمي" (متى 12: 50).

إني أعرف ما أطلبه منكم، سيظهر قاسياً للكثيرين منكم. إنه من الصعب التنكر للعادات القديمة. هذا لا يهمني كثيراً، لأني لا أفتش عن إرضاءكم، وإنما أفتش عن خيركم، ولا ألتمس ثناءكم وولاءكم، وإنما أبتغي كمالكم وخلاصكم.

ولا يقل قائلكم: ولكنها العادة ولا سبيل إلى قطعها! فحيث يخشى من اقتراف الخطايا، ليس من ثبات لأي عادة. وإذا كان هناك من شر، فمهما تكن العادة قديمة يجب أن نلغيها. وعلى العكس من هذا. إذا كان هناك من تصرف ليس فيه إثم، فلنتصرف به ولنكرسه عرساً، ولو كان لا يطبقه أحد بعد.

ولكنكم ستجدون البرهان في زواج اسحق ورفقة ويعقوب وراحيل، على أن عاداتكم المنكرة ليست من القدم في كثير، بل إنها على العكس محدثة بالنسبة إلى تلك العادات.

فالكتاب المقدس يقصها علينا مطولاً، ويصف لنا حفلة الأعراس ونرى أنه لا يدخل فيها شيء من هذا. كانت تولم وليمة أجمل من هذه الولائم، وكانوا يدعون الأقرباء، ولكن بغير تزمير وتطبيل وأهازيج ومراقص، وكل ما هو في المآدب الحالية البذيئة.

الآن يغنون مع الرقص أناشيد أفروديت، ولا نسمع الأغاني تدور إلا حول الزنا، والطلاق، والعشق الآثم والاجتماعات الفاسدة. ويقضون كل النهار فلا تسمع إلا ألحاناً وكلاماً بذيئاً وكفراً ومهاتراتٍ. وهكذا، وفي حالة السكر الشنيع، وفي فيض الكلام البذيء، وفي مجال الخلاعة، يزفون العروس الفتاة على عين الملأ ومسمعه. فقل لي، رعاك الله، كيف نتطلب من هذه الفتاة الطهارة والعفة حين نقدم لها من اليوم الأول من زواجها حفلة مثل هذه الحفلة ونعرض على سمعها وبصرها مشهداً من هذه المشاهد التي تأبون أن يراها أو يسمعها أصغر عبد من عبيدكم.

بعد أن يكون أبوا الفتاة قد اجتهدا، طيلة حداثتها، أن يحرصا على طهارتها، وأن يمنعاها من أن تسمع أو تقول شيئاً مخالفاً لمبادئ الأخلاق، وأن يحفظا لها سلامها من كل الاتصالات المعكرة في الدار وفي خدرها ومع المستخدمين وفي خروجها عند المساء، لكي يخلصاها من أنظار الناس حتى الأقارب، ولكي يضاعفا الاحتياطات لصيانة طهارتها، تأتون، أنتم، وفي يوم واحد، لتهدموا كل هذا الإعداد الطويل، وتعلموا الفتاة أن تنظر بغير خجل هذه الحفلة الرديئة، وتسمع بغير حياء كل هذه الأقوال البذيئة أيضاً.

وهل تأتي، إلا من هنا، تلك الشرور المؤسفة تبعاً لذلك؟ من أين يأتي الزنا والغيرة؟ وما السبب في أن يبقى الرجل بدون أولاد، والمرأة بدون زوج، والأولاد بدون أبوين؟ فعندما تدعو الشيطان إلى عرسك بهذه الأغاني والفواحش، عندما تدخل إلى منزلك الممثلين المخجلين، والمهرجين المتهتكين وتملأه بالراقصات والبغايا وتفسح المجال لألاعيب إبليس أن تعمل فيه، فأية نتيجة حسنة تتوقع؟ كيف تقدر حتى أن تأتي بكهنة المسيح إلى عرسك حين يجب عليك، غداةَ العرس، أن تعرض هذا المسرح الوثني؟

أتريدون أن تعرضوا موكباً أجدى عليكم من هذا المواكب؟ أدعوا الفقراء وأقيموا منهم محفلاً. آه أتخجلون من هذا؟ يا لها من مخالفة للمنطق رهيبة! عندما تدخلون الشيطان إلى بيوتكم لا تخجلون، ولكن عندما نقول لكم أن تدخلوا إليها المسيح، تجدون في هذا شيئاً مخجلاً! عندما تدخلون الفقراء إلى منازلكم، إنما تدخلون المسيح نفسه. وعندما يدخل إليها الممثلون والمهرجون ويرقصون فالشيطان هو الذي يدير الرقص. ونفقاتكم على العرس لا تأتيكم بالفائدة، بل تأتيكم بالدمار، وتجلب عليكم القصاص، في حين أنكم إذا دعوتم الفقراء، ترتجون من هذه الدعوة مكافأة لا نظير لها.

ولكن قد تقولون ما من أحد في المدينة يتبع هذه العادة! ماذا نعمل! ولكنكم أنتم ستدخلونها، وستكونون أول من يتبعها، وسيكون الخلف مديناً لكم بهذا.

وإذا أنت اقتدت الغير إلى هذه العادة المحدثة وخلقت فيها تنافساً شريفاً، وإذا ساءلت الأجيال المقبلة بعضها بعضاً: من أدخل هذه العادة؟ فسيجيبون: إن فلاناً هو أول من أدخل هذه العادة الجميلة.

وبالفعل، إذا كان الناس يتغنون، في المآدب العامة، بأمجاد أولئك الذين عرفوا أن يفتتحوا فتحاً جديداً باطلاً، فما أجدرهم أن يمتدحوا، في كنائسنا، مؤسسي هذه العادة المقدسة، وأن يعزوا الفضل للمُدخل الأول لهذه العادة. فإن الآخرين سيمرون في ظلكم، ولكنكم أنتم الذين قد غرستم الشجرة.

وأنت أيضاً هو الإنسان الأول الذي ستقطف ثمار هذه الشجرة. ستنتج لك، منذ هذه الحياة، أفراحاً أبوية، وستكون منبع نعمة لبنيك، كما أنها ستهيئ لك ولامرأتك عمراً طويلاً وشيخوخة صالحة، لأنه، كما أن الله تعالى يُسمع الخطأة تهديداته قائلاً "أن نساءهم يصرن أرامل، وأولادهم يتامى" (خروج 32: 24)، فإنه لا يفتأ يعد الأمناء له في كل شيء والمخلصين بالشيخوخة وكل البركات والخيرات التي تستتبعها. أَوَلا يقول لنا القديس بولس، بدوره، أن الميتات المبكرة هي غالباً قصاص على كثرة الخطايا: "ولذلك كثرت فيكم الأمراض والأسقام ومات كثيرون" (1كور 11: 30)، فتعزية الفقراء، إذ تبعدكم عن مثل هذه الضربات، تساعدكم على الخروج من التعاسة التي تكونون غارقين فيها. وهذه قصة الفتاة طابيتا، تخبرنا أن الفقراء الذين كانت تطعمهم، اجتمعوا حول سريرها حيث كانت ميتة ممدّدة وطلبوا وتوسلوا بصلواتهم ودموعهم، أن تعاد إليها الحياة.

إن صلوات الفقراء ودموع الأرامل هي أفضل من البغايا ورقص المهرجين. في هذا لذة عابرة باطلة، وفي تلك مكافأة خالدة.

تصوروا ما يمكن أن يكونه دخول العروس إلى بيت عريسها عندما ترى نفسها حاملة مثل هذه البركات (صلوات الفقراء). ألا نراها توازي كثيراً من المجوهرات؟ وتفوق الغنى والمقتنيات؟ وكم تبدو لنا المواكب الحاضرة، إلى جانبها، حقيرة وباطلة! قد لا يقع القصاص، أمام أعينكم، على الذين يفعلون مثل هذه المحرمات المخجلة، ولكن أليس من القصاص للمشاهدين أن يغرقوا بطوفان هذه القبائح والمنكرات يأتيها أمامهم سكارى ومجانين؟

إن الفقراء الذين تعطونهم، يباركونكم، ويستمطرون لكم بصلواتهم كل أنواع النعم. أما الذين يملأ أجوافهم طعامك وخمرك فإنهم يتقيئونها على رأسك بذاءات ورذائل ويتخاصمون فيما بينهم، بقبيح الكلام، حتى كأنهم يتنافسون فيمن يصب على الزوجين الألفاظ القبيحة، ويزيد في تخجيلهما وحيرتهما.

أوَ تريدون برهاناً غير هذا البرهان على أن الشيطان هو الذي يقود هذه الزمرة؟ ومن منكم لا يرى أنه هو الذي يمسك النفوس كأنها دمى ويجعلها تعمل وتتحرك وتتكلم؟ من يستطيع أن ينكر هذا؟ وعندما يتكلم معكم رجل غضوب أبله عربيد، أليس الشيطان هو الذي يكلمكم؟

وإذا ادّعيتم أنكم إذا أدخلتم إلى بيوتكم الفقراء، عوض هؤلاء الناس، تتسببون في الشؤم والتعاسة، أجبتكم أن ما يتسبب في الشؤم والتعاسة ليس إطعام الفقراء والأرامل، بل هو إطعام الفجّار والبغايا.

كم من مرة رأينا، في ليلة العرس ذاته، إحدى العواهر تختطف العريس من بين أصدقائه وتجره معها، وتفسد سعادة حياة في فجرها، وتحوِّل قلباً عن موضع هواه الطبيعي، وتطفئ شعلة الحب في أول شبوبها، وتُغرق في قفزة واحدة الزوج في الزنا؟ هذا ما يجب أن يتخوّف منه الوالدون، إذا لم نقل أكثر من ذلك، وهذا ما يجب أن يمنعوا، لأجله، الرواقص والفواجر من المجيء إلى أعراسهم. إن الزواج لم يؤسس لأجل الزنا والفحش بل، على العكس، ليحفظ منهما. "لكي تجتنبوا الزنا، يقول بولس الرسول، ليكن لكل رجل امرأته، ولكل امرأة بعلها". والزواج إنما وُضع لسببين رئيسيين: الأول هو ضبط وتعديل الميل الحسي (الجنسي)، والثاني إنجاب البنين. والسبب الأول هو الأهم. ومنذ أن ظهر الميل الجنسي وُضع الزواج لضبط هذا الميل بحمل الإنسان على الاكتفاء بامرأة واحدة.

أما إنجاب الأولاد فإن الزواج ليس سبباً له على الإطلاق. وإنما يتجاوب الزواج مع قول الله في التكوين: "انموا واكثروا واملأوا الأرض" (تكو 1: 28). وبرهان ذلك الزيجات الكثيرة التي لا يكون فيها إنجاب أولاد.

ولهذا السبب الأول الزواج هو ضبط الميل الجنسي، لا سيما وقد ملأ اليوم الجنس البشري الأرض بأسرها.

كانت قبلاً الرغبة في إقامة النسل تُفهم كما يأتي: إن كل واحد كان يريد أن يترك ذِكراً وأثراً لحياته الخاصة حين لم تكن مسألة القيامة موجودة، وحين كان يبدو كأن كل شيء ينتهي بالموت، وحين كان المائت لا يرى له شيئاً باقياً بعد هذه الحياة. حينذاك أعطى الله هذه التعزية بأن يكون للإنسان أولاد يتركون صورة للراحلين، ويحفظون الجنس البشري، ويقدمون للذين على حافة الموت ولأقاربهم فرح الحياة بأعقابهم.

ونرى البرهان على أن هذه هي الرغبة الكبيرة التي كانت للوالدين في ذلك الزمان. نراه في تذمرات امرأة أيوب بعد أن أصيبت بتلك النوازل واحدة بعد الأخرى إذ قالت: "انظر أن بنيك وبناتك فقدوا، ولم يبق لك أثر على الأرض" (ايو 18: 17). وهذا ما عبَّر عنه أيضاً شاول حين قال لداود: "احلف لي بأنك لا تبيد ذريتي ولا اسمي بعد موتي" (1ملوك 24: 22).

أما الآن، وقد أشرق علينا نور القيامة، وبقينا ننتظرها، وقد أصبح الموت حادثاً عرضياً، لا خاتمة لحياتنا، ونرجو بعد هذه الحياة حياة أفضل، لم يعد لإقامة النسل ذات الأهمية.

لأنك، إذا أردت أن تبقي أثراً وذكراً لمرورك في هذا العالم، توجد اليوم وسيلة لخلودك، وهي الولادات الروحية، الولادات الأسمى، وتستطيع أن تربي للأيام الأخيرة من شيخوختك أولاداً وتتركهم بعدك ويكونون لك سنداً وفخراً أفضل من أبناء الدهر.

وعلى هذا، فلا يكون بعد للزواج من غاية سوى اجتناب الزنى، ولهذه الغاية وُضع الزواج قبل غيرها من الغايات. وإذا عاد الإنسان بعد زواجه إلى البغايا فالأحرى به أن لا يتزوج لأن زواجه لا ينفعه في شيء، ولكن، ماذا أقول ؟ أنه يفيد في تشديد الحكم عليه بالعقاب.

إن من يأتي بغياً قبل زواجه يكون فعله غير عل من يأتي بغياً بعد زواجه. ففي الحالة الأولى يسمى فعله بغاء، وأما في الحالة الثانية فيسمى زنا (خيانة زوجية). إن إثباتي لكم هذا الأمر يظهر غريباً، ولكنه الحقيقة بعينها. أنا أعرف أن كثيرين منكم يتصورون أن لا فعل زنا إلا في أن تجر إلى الخطيئة امرأة متزوجة. وأما أنا فأقول لكم أن أي رجل، كان متزوجاً، ينشىء علاقة محرمة مع أنثى غير متزوجة، وإن تكن بنتا عمومية، أو خادمة بسيطة، أو أية امرأة، هذا الرجل يقترف الزنا.

ذلك أن طائلة الزنا تقع على الاثنين معاً، الزاني والزانية. ومن ادعى بأن القانون المدني لا يحاكم إلا المرأة الزانية، ولا يطالب الرجال بطائلة إفساد خادماتهم، أجبته أن الناموس الإلهي ينظر إلى الاثنين نظرة واحدة ويجرم الاثنين بجريمة واحدة، هي جريمة الزنا.

لأنه بعد أن قال القديس بولس: "ليكن لكل امرأة رجلها"، يضيف قائلاً: "ليقض الرجل المرأة حقها". فماذا يعني بذلك؟ أيعني أنه يجب على الرجل أن يحفظ لامرأته فائدة مهرها؟ أو أن لا يمس رأسمال هذا المهر، وألا يتأخر في الإنفاق عليها في الملبس وباقي المصروفات؟ أو أنه يجب عليه أن يؤدّب لها دائماً المآدب الفخمة، ويهيئ لها النزهات الرائعة، أو أن يوفر لها الخدم والحشم؟ ما هو الحق الذي تقصده أيها الرسول القديس بولس؟

كلا، إني أسمع بولس العجيب يجيبني قائلاً: كلا، لست أعني شيئاً مما ذكرت. وإنما أعني شيئاً واحداً، يترتب على الزوج التقيد به، ألا وهو الاكتفاء بامرأته، والحفاظ على الطهارة. إن جسد الرجل ليس ملكه، بل ملك امرأته. فيجب عليه أن يحفظه سالماً نقياً صحيحاً غير مدنس كأنه أمانة وديعة. لأن الرسول يضيف قائلاً: "لأن جسد المرأة ليس ملكاً لها بل لرجلها، كما أن جسد الرجل ليس ملكاً له، بل لامرأته".

فإذا أرادت بغي أن تجتذبك إليها، وتوقعك في فخها، وتشتهي جسدك فقل لها: إن جسدي لا يخصني، بل يخص زوجتي، وليس لي حق التصرف به، وليس لي أن أسلمه لغيرها. وهكذا يجب أن تفعل المرأة. وفي هذا الحد تكون المساواة كاملة.

وإذا كان بولس الرسول يعطي، في مواضيع أخرى، حق الرئاسة والتفوق للرجل على المرأة: "والمرأة يجب أن تحترم رجلها.. لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة.. ويجب أن تخضع النساء لرجالهن في كل شيء". فهذا ما يتفق مع قول الله تعالى في سفر التكوين: "وإلى بعلك يتجه نظرك وهو يسود عليكِ" (تك4: 16) ولكن من هذه الناحية، لا خادمة ولا سيد، بل المساواة الكاملة. المرأة ليست متسلطة على جسدها بل الرجل، كذلك الرجل ليس متسلطاً على جسده بل المرأة هي المتسلطة. لماذا هنا مثل هذه المساواة ؟ ذلك أنه في الحالة الأولى كان يجب أن تسود الرئاسة. أما هنا، والأمر أمر طهارة وأمانة، فليس من فرق بين الرجل والمرأة. الرجل ليس له أية أفضلية وأية شفاعة، ويعاقب كالمرأة إذا هو خرق قوانين الزواج. وهذا، لعمري، هو العدل. لأن امرأتك حليلتك، لم تترك أباها وأمها وكل أهلها لكي تكون مهانة، ولكي ترى وراءها عبدة حقيرة دخيلة عليها، أو لكي تتحمل معك حرباً دائمة. كما أن الزوج ما اختار من بين الكريمات الشريفات رفيقة حياته وعشيرة عمره لكي يتصرف مثل هذا التصرف.

ليس أمراً غريباً أن يكون المهر الذي حملته إليك امرأتك موضوع عنايتك وأمانتك حتى لا يفقد منه شيء. وهذا الكنز الذي تختلف قيمته عن كل المهور، أعني كنز العفة والطهارة، وجسدك نفسه الذي هو ملك حقيقي لامرأتك، ألا تخاف أن تبدده وتضحيه ؟ وإذا أنت أسأت إلى مهر زوجتك، فإنما تسيء إلى حميك. ولكن إذا أسأت إلى الطهارة الزوجية فإنما تسيء إلى ربك الذي ستؤدي له حسابك، إلى الله الذي أنشأ الزواج لأجلك، وأعطاك امرأتك.

ولك الدليل على هذا أيضاً في تعاليم بولس الرسول عن الموضوع نفسه: "إذن من يحتقر، فلا يحتقر إنساناً بل الله الذي احل روحه القدوس أيضاً فينا" (1تسا 4:8).

فلا نعرضن سعادتنا للخطر، وفي سبيل هذه الخطيئة نسلم نفسنا للشيطان. فهذه الخطيئة هي التي تسبب كثيراً من الشرور، وتلقي بذور الخراب والدمار في الحياة البيتية. هي التي تمحو المحبة المتبادلة، وتخمد الحنو والعطف. فكما أنه يستحيل على الرجل الأمين والمحافظ على الطهارة الزوجية أن يهمل زوجته أو أن يحتقرها، كذلك يستحيل على الرجل الدنس الخائن العهد الزوجي أن يحب زوجته ويؤثرها، ولو كانت أجمل نساء العالم. فمن العفة والأمانة تتولد حرارة المحبة الحقيقية، ومن المحبة تتولد السعادة.

فليكن إذن، نظرك إلى سائر النساء كنظركم إلى تماثيل حجرية. ولا تنسوا أن نظرة رديئة تلقونها على امرأة، أكانت متزوجة، أم غير متزوجة، تجركم إلى الزنا. تذكروا هذا كل يوم. وإذا ألهب فيك نظرك إلى امرأة أخرى، شهوة رديئة، وعمل على إخفاء حبك لامرأتك، فادخل مخدعك، وافتح الكتاب المقدس، وانظر فيما قال القديس بولس الرسول. فلا بد أن تشعر، وأنت تردد كلماته، أن اللهيب الذي اشتعل فيك قد انطفأ، ولا بد أن تحس تجاهها حباً أكثر من الأول، ولا تعود شهوة رديئة تغزو قلبك، وتقلل من قوة محبتك لها. وإذ ذاك، فلا تحس، فقط، من جانب امرأتك، حباً لك أكثر من قبل، بل إنك تكون قد أضفت إلى شرفك شرفاً وكرامتك كرامة. لأنه هل يوجد أحط لقدر الرجل، وأدعى إلى مذلته وهوانه من أن يرى نفسه بعد الزواج، غارقاً في الرذيلة؟

إنه لا يجسر النظر إلى عائلته وأصدقائه والناس الذين يصادفهم، وإنه ليخجل حتى أمام خدامه. وليس هذا كل البلاء: إن بيته يبدو له سجناً بغيضاً مكروهاً. فلا يهتم بأن يفتش عن شيء لصالح بيته، وتفكيره وخياله متعلقان دائماً بالبغي التي سلبت عقله! وحسبه من ذلك تعاسة وشقاءً!

وتصوَّر من وجهة أخرى وضع الرجال الذين يشتبهون بنسائهم الشبهات السيئة! تصوَّر مرارة عيشهم وهم لا يطيب لهم مأكل ولا يحلو لهم مشرب ولا يهنأ لهم منام! ولا ينعمون بالاستئناس إلى صديق، حتى ولا بنور الشمس، فالنور يزعجهم. وكأن على موائدهم سماً بدل الطعام، وهم يكرهون، كرههم للطاعون، منازل لم تلد لهم إلا الشرور، كل هذا بمجرد دخول الشبهة إلى نفوسهم بخيانة أزواجهن من غير أن يلاحظوا أو يروا شيئاً.

فتأمل يا صاح ما هو من أمر الرجال، وفكر أيضاً أن النساء يقاسين هذه العذابات نفسها، إذا أخبرن أو اشتبهن بأن رجالهن انصرفن عنهن إلى حظيّة ماكرة.

فاعتبروا بهذه الأمور لكي تتجنبوا الخيانة الزوجية بل لكي لا يخطر لكم الزنا على بال. وإذ داخلكم، على الرغم منكم، سوء الظن بنسائكم، فاعملوا كل ما في وسعكم، لكي تمحوه من مخيلتكم، وأن تؤكدوا الطمأنينة في أنفس نسائكم. وتأكدوا أنه في حالة إساءتهن الظن بكم، فليس الحقد والكراهية هما اللذان يسيرانهن عندئذ، بل مخاوفهن وقلقهن على كنزهن الخاص. لأن أجسادكم، كما قلت، ليست ملككم، بل ملكهن، وأثمن ملك لديهن. فلا تفجعوهنّ بسلب ما يملكن، ولا تنزلن بهم الضربة القاتلة. وإذا أنتم لم تخشوا سخطهن ونقمتهن، فخافوا على الأقل الإله الذي ينتقم لمثل هذه الجرائم، والذي وعد الزناة بأفظع العقوبات: "بالدود الذي لا ينام والنار التي لا تطفأ" (مر9: 45).

وإذا لم يرجفكم عذاب الآخرة، فلترجفكم صواعق الآلام التي تسقط منذ الآن على رؤوسكم. فكم من تعساء متهتكين هلكوا بحالة يرثى لها، في حبائل الزواني الماكرات!؟ فلكي ينتزعنهم من بين أيدي نسائهم الأثيرات لديهم، ورفيقات حياتهم، ويجتذبنهم إليهن، يلجأن إلى الرقي والأشربة السحرية وإلى كل وسائل السحر والخزعبلات. وبعد أن يستولين عليهم يوقعنهم في الأمراض الوبيلة حتى يبري الهزال أجسادهم، وينقلوا أشباحاً تتحرك، يسهل عليهن أن ينقلنهم من هذه الدنيا على الآلة الحدباء.

فإذا لم تخشوا نار جهنم، فاخشوا هذه البلايا العظيمة. فعندما تسلب خطيئتك نعمة الله منك، ويعريك الزنا من كل مساعدة علوية، تصبح غنيمة وفريسة سهلة بين يدي بغيك التي تستطيع عندئذ أن تستصرخ دونما خوف شياطينها، وتتذرع بخزعبلاتها ورقاها، لكي تسلم نفسك إليها، وتجعل منك بالتالي، مهزلة وأحدوثة أهل المدينة كلها.

هذا، وناهيك عن الأموال الطائلة التي ينفقها المتهتكون ثمناً لكبرياء الغواني ودلالهن ومجونهن وتطلباتهن من ضحاياهن الفاقدي الإحساس، أولئك الضحايا الذين لو أحسوا لتمنوا الموت لأنفسهم ألف مرة بدلا من تذللهم وعبوديتهم.

يا لك شقياً، إنك بالأمس، ما كنت لتتحمل من زوجك كلاماً بسيطاً مهما يكن. وها أنت الآن تقبِّل رجلي الزانية التي تواجهك بالصفعة على وجهك! عجباً منك! أَوَلا تخجل؟ أَوَلا يندى جبينك بعرق الاستحياء؟ أَوَلا تتمنى أن تنفتح الأرض لتبتلعك إلى جوفها؟ كيف تجسر على الدخول إلى الكنيسة، وترفع يديك إلى السماء؟ وكيف تتلفظ باسم الله من شفتين دنستين قبَّلت بهما بغياً؟ ألا تخشى أيها الشقي؟ ألا تخشى وترتجف من أن ينزل عليك من السماء بغتة غضب الله؟

إنك تستطيع أن تتوارى من أنظار زوجك التي تهينها، ولكنك لن تهرب من أمام أنظار الله المنفتحة عليك والمراقبة إياك دائماً.

ولهذا السبب يقول لنا القديس بولس الرسول: "ليكن لكل رجل امرأته، ولكل امرأة بعلها. وليقض الرجل المرأة حقها وكذلك المرأة الرجل كل ما يتوجب عليها"، "لأن شفتي الزانية تقطران شهداً، وحنكها ألين من الزيت لكن عاقبتها مرة مثل العلقم، حادة كسيف ذي حدين" (أمثال 5:3،4)، وفي قبلة البغي سم خفي. فكيف إذن تسعى وراء مثل هذه الملذات التي تجرك إلى هلاك نفسك، وإلى الموت الأبدي في حين أن السعادة الأبدية إلى جانبك تفتح لك أحضانها؟ إن ملذاتك مع امرأتك هي ملذات بلا تعكير، ومسرات بلا تبكيت ضمير. أما ملذاتك مع امرأة غير امرأتك فكلها مرارة وشقاء وعذاب. لأنك قد تستطيع أن تتوارى عن أنظار الناس، ولكنك لن تستطيع الإفلات من تقريعات ضميرك. فأينما تتوجه تلاق هذا الحكم المخيف الذي يتبعك دائماً ولا يفتأ يصرخ طالباً الانتقام منك.

فإذا كنت تطلب سعادة في هذه الدنيا، فإن أماكن الدعارة لا يجب أن تخطر على بالك، لأنه هل من مورد أوسخ من موردها؟ وهل من مكان أفسد منها؟ وهل من أخلاق أحط من أخلاق أهلها؟ "ليكن منبعك مباركاً وافرح بامرأة حداثتك" (أمثال 5:18). وعندما يكون إلى جانبك نبع نظيف، فلماذا تسعى إلى الينابيع العكرة الفاسدة التي تشعرك بجهنم النار والعذاب الأبدي؟ أي عذر تقدم عن نفسك؟ وأي عفو تفتكر أن تلاقي؟

إذا كان أولئك الذين، قبل زواجهم، يسلمون أنفسهم للدعارة والتهتك، لا يفلتون من الدينونة، كالمدعو إلى العرس وليس له لباس العرس، فإن الذين يفعلون الزنا، ويخونون العهد الزوجي، بعد زواجهم، لهم دينونة أعظم وقصاص أفظع. ذلك أنهم يكونون أشد إجراماً بكثير من الأولين، لأنهم يحق لهم أن يستمتعوا بملذات محللة لهم، يتركونها ليستمتعوا بملذات محرمة، ويقعوا في الزنا والخيانة الزوجية.

هذا ما أرجو أن تتذكروه وتكرروه لبعضكم بدون انقطاع، وبه سأنهي حديثي: "لكي تجتنبوا الزنا، فليكن لكل واحد امرأته، ولكل امرأة بعلها. وليقض الرجل المرأة حقها وكذلك المرأة لتخضع لرجلها في كل شيء. جسد المرأة ليس ملكاً لها، بل ملك لزوجها. وكذلك الرجل، ليس جسده ملكاً له بل ملكاً لامرأته".

كرروا هذه الأقوال بكل مناسبة، وفي كل مكان، في السوق والبيت، في الليل وفي النهار، وعلى المائدة وفي سرير النوم. كرروها لأنفسكم ورددوها أمام نسائكم، ولتذكركم بها نساؤكم، حتى إذا عشتم عيشة طاهرة على الأرض تبلغوا إلى الملكوت السماوي، بنعمة ومحبة سيدنا يسوع المسيح الذي ينبغي له كل مجد وإكرام مع أبيه وروحه القدوس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

**الحديث الثاني**

**الطلاق**

"المرأة مرتبطة بالشريعة ما دام رجلها حياً. فإذا مات رجلها فهي حرة أن تتزوج من أرادت بموجب الناموس والأفضل لها أن تبقى بغير زواج" (1كور7:39-40).

لقد بسطنا لكم في الحديث السابق ما حدده لنا القديس بولس الرسول من غاية الزواج وحقوق الزوجين. وبما أن هذا القديس نفسه يكلمنا عن الزواج أيضاً، فسنتابع بحث هذا الموضوع.

لقد سمعناه يقول لنا: "الامرأة مرتبطة بالشريعة ما دام زوجها حياً. فإذا مات رجلها فهي حرة أن تتزوج من أرادت بموجب الناموس والأفضل لها أن تبقى بغير زواج"، فلنتابع إذن قول القديس بولس اليوم أيضاً، ولنبحث في هذا القانون الذي يضعه لأجل الزواج. وإذا نحن اتبعنا بولس، فإنما نتبع المسيح نفسه، لأن الرسول لم يستوح في كل ما قاله وما كتبه، من فكره، بل من يسوع المسيح.

إن الزواج هو منبع السعادة لمن يحيا حياة مسيحية. وهو على العكس منبع شقاء وتعاسة لمن يسيء استعماله. فالمرأة يمكن أن تكون سند حياتك، ويمكن أن تصبح سبب دمارك. والزواج قد يكون لك ميناء نجاة، وقد يكون لك بحراً متلاطماً للغرق. والزواج بطبيعته هو حسن. ولا يصبح سيئاً إلا بإساءة استعماله.

عندما يتمسك الإنسان بالقوانين مخلصاً، يجد في عائلته، وبالقرب من امرأته الهدوء في الاضطراب، والتعزية في التعاسة. وعلى العكس، إذا لم يكن له من الزواج إلا الاسم، فلا يجد من عائلته إلا الجحيم. وما دام الأمر على هذه الأهمية، فيجب أن نقف عند كلمات القديس بولس بإصغاء وانتباه وأن نزنها. وعندما يريد أحد أن يتزوج يجب أن يتقيد بتعاليم بولس بل بالأحرى بتعاليم المسيح.

إني أعلم أن هذا التعليم يبدو للكثيرين منكم غريباً وجديداً، ومع هذا فلا أتهرب منه. أريد قبلاً أن أجعلكم تعرفون القانون. ثم أحاول أن أزيل كل الاعتراضات التي تقف في سبيله.

ما هو إذن القانون الذي يضعه القديس بولس؟ يقول: "الامرأة مرتبطة بالشريعة"، فلا يجب عليها إذن، في حياة زوجها، أن تنفصل عنه، ولا أن يكون لها زوج آخر، ولا أن تعقد زواجاً آخر. وأرجو أن تلاحظوا جيداً، مدلول العبارات التي يستعملها بولس الرسول. لا يقول إنه يجب عليها أن تسكن مع زوجها، ما دام زوجها حياً. ولكنه قال "إنها مرتبطة بالشريعة ما دام زوجها حياً". فقد يحصل حادث طلاق، وقد تكون منفصلة بالجسد ولكنها على كل حال مرتبطة بالناموس. وإذا عاشت مع رجل آخر، فهي بحالة زنا. وإذا أراد الرجل أن يطرد امرأته، أو إذا أرادت المرأة أن تهجر رجلها، فليتذكر كل منهما قول القديس بولس الرسول القائل: "المرأة مرتبطة بالشريعة".

فكما أن العبيد الآبقين[[1]](#footnote-2) يجرون سلاسلهم بأرجلهم، وتشهد عليهم بخشخشتها، هكذا النساء اللواتي يتركن أزواجهن، يسحبن معهن الناموس الذي يخضعهن أيضاً، ويتابعهن بسلطانه مع مثيلاتهن، ويشكيهن صارخاً: الزوج حي وأن ما تعملنه إنما هو زنا، لأن المرأة مرتبطة بالشريعة ما دام زوجها حياً. "ومن يأخذ امرأة مزوجة يقترف الزنا" (متى5:32).

ومتى تُرى يمكن عقد زواج آخر؟ متى؟ عندما تنحل هذه الربط، عندما يموت الزوج. ولاحظوا هنا عبارة بولس. فإنه لا يقول، على التخصيص، عندما يموت رجلها، بل "إذا رقد رجلها". فكأنه يريد بهذا أن يعطي هذه الأرملة تعزية، أو كأنه يريد أن يقنعها بالبقاء بجانب زوجها، وعدم التفتيش عن زوج آخر: "إن زوجك لم يمت ولكنه يرقد". أفلا ننتظر الإنسان الذي ينام حتى يفيق؟ ولهذا يقول: "فإذا كان يرقد رقاده الأخير، فهي حرة أن تتزوج من تشاء". لا يقول: "فلتتزوج "، لأن الزواج ليس ضرورة وليس هو بالتالي نظاماً أو أمراً. لا يمنعها أن تتزوج، إذا أرادت، ولا يجبرها بالمقابل، إذا لم ترد. يكتفي بأن يعرفها قول الناموس. وهي حرة بعد ذلك في أن تتزوج من تشاء. ولكنه عندما قال أن موت رجلها يطلق لها الحرية، يعتبر في الوقت نفسه، دوام خضوعها للناموس كما لو كان زوجها لا يزال حياً، وبخضوعها للناموس وارتباطها به مهما يكن لها من مبررات الطلاق، فإن زواجها بغيره لا يخرج عن كونه زنا. الخدام يقدرون أن يتركوا سيدهم، وهو في قيد الحياة، أما النساء فلا يستطعن أن يتركن أزواجهن إلا بعد الموت، وإذا هن فعلن ذلك فإنهن يقترفن الزنا.

ولا تعارضوني بالقانون المدني الذي يسمح لكم أن تحدثوا سبباً للطلاق وتطلقوا نساءكم، إذ ليس بحسب هذا الناموس، ستدافعون أمام الله في اليوم الأخير بل بحسب الناموس الذي وضعه هو تعالى.

أضف إلى ذلك أن باب القانون المدني ليس مفتوحاً على مصراعيه وليس السماح فيه بالطلاق مطلقاً. فالشرائع المدنية تعاقب في بعض الحالات المدنية، على الزنا، وهي أيضاً تعتبره، إلى حد ما، جريمة. إنها تجرد المرأة التي استحقت الطلاق بعملها، من أملاكها وتطردها من غير أن تترك لها مورداً، كما أنها تعاقب الرجل الذي هيأ فرصة الطلاق بأخذ ثروته. وهكذا فليس في هذه القوانين دفاع عن الزنا. وقد تقولون لي: وما رأيك في موسى الذي كان يسمح بالطلاق؟ وجوابي عن هذا يكون بلسان المسيح: "إذا لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين، فلا تدخلون ملكوت السموات" (متى5: 20) وبلسان المسيح الذي قال بعد هذا: "من طلق امرأته، لغير علة الزنا، فقد زنا. ومن تزوج بمطلقة فقد زنا" (متى5: 32). ومن البديهي أن ابن الله إنما قصد أن يرفعنا إلى المكان الأسمى، إذ جاء إلى الأرض، وأخذ صورة عبد وسُفك دمه الثمين، وغلب الموت، ومحا الخطيئة، وأفاض علينا نعماً أغزر من نعم العهد القديم.

هذا، وموسى نفسه، إذ كان أبعد من أن يسن الطلاق نظرياً، لا يدخل الطلاق كتحريف وتحويل للناموس، قد سمح به إرضاء لغرائز اليهود الضعيفة. وما من أحد يجهل أعمالهم الإجرامية، وإسراعهم إلى القتل، واستسهالهم تدنيس مسكنهم بدماء أقاربهم، وقلة احترامهم لحياة أهلهم وحياة آخرين. فقد وجد موسى أنه خير له أن يسمح بالطلاق من أن يغضب اليهود بتحريمه وأن يقتلوا النساء في بيوتهم وأن يجتنبوا هذه الويلات. فقد أحل الطلاق محل القتل.

ولكي تعرفوا أن إقدامهم على سفك الدماء ما كان يكلفهم شيئاً، اسمعوا ما يقول ميخا النبي: "الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالإثم" (ميخا 3:10)، وما يقول حجي النبي: "بل اللعنة والكذب والقتل والسرقة والفسق قد فاضت والدماء تلحق بالدماء" (هوشع 4:2)، وأشعيا النبي: "وأيديكم مملوءة بالدماء" (أشع 15:1). فلكي يجتنب موسى هذه الجرائم الدموية، أباح لهم الطلاق. وهذا ما فسره المسيح نفسه عندما سأله تلاميذه "فلماذا أوصى موسى أن تعطى كتاب طلاق وتخلى؟ فقال لهم أن موسى لأجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولم يكن من البدء هكذا" (متى 19:7-8). ولو لم يكن الأمر هكذا، لما خلق الله رجلاً وامرأة فقط، وأذن لخلق الله بعد آدم، امرأتين، ليطلق واحدة، ويستعيض عنها بالأخرى. ولكن ناموس الخليقة هو صريح، وهو الذي يثبته المسيح، وهو الذي أفهمكم إياه اليوم.

وما هو الناموس؟ هذا الناموس هو: أنه على الرجل أن يحتفظ بالمرأة التي أعطاه إياها الله، إلى نهاية حياته، ويكتفي بها. هذا الناموس أقدم من ناموس الطلاق على مدى الزمن الذي يفصل بين آدم وموسى. وعليه فلست بمبتدع لكم شيئاً جديداً، ولا ناموساً غريباً، بل على العكس مذهباً أقدم من مذهب موسى.

وتبعاً لذلك، فلندرس عن كثب ما يقوله موسى نفسه: "إذا اتخذ رجل امرأة وصار لها بعلاً، ثم لم تحظ عنده لعيب أنكره عليها، يكتب لها كتاب طلاق، ويدفعه إلى يدها" (تثنية 24:1)، فتأملوا العبارة: أنه لا يقول "فليكتب لها" أو "فليعطها"، بل يقول: "يكتب لها كتاب طلاق ويدفعه إلى يديها، وهناك فرق كبير بين العبارتين. الأولى تفيد الأمر ورسم شريعة جديدة، أما الثانية فتفترض شيئاً موضوعاً قبلاً ولا تدخل، من جانب موسى، ناموساً جديداً.

"فإذا خرجت من بيته ومضت، وصارت لرجل آخر، فأبغضها الرجل الآخر، وكتب لها كتاب طلاق، فدفعه إلى يدها، وصرفها من بيته، أو مات الرجل الآخر الذي اتخذها له زوجة، فليس لبعلها الأول الذي طلقها أن يعود ويأخذها بعدما تدنست" (تثـ 24:2-4). ثم لكي يتبيَّن لك أن الزواج الثاني، بعد الطلاق، لم يكن في نظر موسى حقيقياً، وأنه إذا سمح به فلكي يرضي غرائز اليهود، نسمعه بعد أن قال: "الرجل الأول لا يستطيع أن يتخذها زوجة"، يضيف: "بعدما تدنست". وهذه عبارة تدل على أن الزواج الثاني إنما كان دنساً وليس زواجاً. ولهذا لم يقل "بعدما تزوجت" بل "بعدما تدنست". ألا ترون قرب مدلول هذا الكلام من كلام السيد المسيح؟ ثم انظروا السبب الذي يقدمه: "لأن هذا رجس في عيني الرب". هذا ما يقوله موسى. ثم اسمعوا ما يقوله ملاخي النبي بصورة أوضح مما هي عند موسى: "وهذا أيضاً صنعتم: غشيتم مذبح الرب دموعاً وبكاءً وعجيجاً حتى إني لا ألتفت إلى التقدمة من بعد ولا أقبل من أيديكم شيئاً مرضياً. وتقولون لماذا؟ لأن الرب كان شاهداً بينك وبين امرأة صباك التي غدرت بها، وهي قرينتك وامرأة عهدك. أليس واحد صنعها، وهي بقية روحه؟ وماذا يطلب الواحد. زرعاً لله. فاحفظوا روحكم ولا تغدر بامرأة صبائك. إذا أبغضتها فطلقها قال الرب إله اسرائيل لكن الجور يغطي لباسك قال رب الجنود" (ملاخي 2:13-16). يقول الله نفسه: هل يمكن أن ألتفت إلى تقدماتكم بعد، أو أن أقبل شيئاً مرضياً؟ وما هو السبب في ذلك؟ إن السبب هو ما يقوله بعد ذلك فوراً: "لأنك تركت امرأة صبائك". ولكي يبيِّن فظاعة الخطيئة ويطرح كل عذر للمجرم بترك امرأته، يجمع أهم الشكايات من الإنسان، فيضيف قائلاً: "مع أنها كانت رفيقة حياتك، وامرأة صبائك، وامتداد وجودك، وهي الكيان الذي خرج من كيانك، وخالقها وخالقك هو واحد". فانظر كيف يعدد كل ما كان من فضلها: العمر: "كانت امرأة صبائك"، نفعها: "كانت رفيقة حياتك"، ونظام خلقها: "امتداد وجودك". ثم يصعد الترتيب إلى أرفع الدرجات، وهي عظمة خلقة المرأة، وهذا معنى هذه الكلمات: "لها نفس الخالق الذي خلقك". فكأني به تعالى يريد أن يقول للرجل: "إنك لا تستطيع أن تدعي أنك خرجت من بين يدي الله على حين أن المرأة لم تخرج من بين يدي الله، أو خلقها خالق أقل منه! كلا، بل هو الخالق الواحد الذي خلقكما كليكما من العدم. وبما أنك لا تستطيع أن تقول غير ذلك، فهذا السبب العميق يكفيك لكي تحفظ لها المحبة. وإذا كنا، غالباً، نرى خداماً لا يتخاصمون فيما بينهم لأنهم يخصون سيداً واحداً، أفما يجب بالأحرى أن يكون الأمر نفسه بين الرجل والمرأة، إذ أن لهما سيداً واحداً، وخالقاً واحداً؟

ألا ترون كيف أن العهد القديم يدخلنا، إلى حد ما، في العهد الجديد، ويجعلنا نذوق، من خلاله العهد الجديد؟ كلما تطاول الزمن على العهد القديم، واقتربنا من العهد الجديد، عهد الكمال، وأمسكنا بأطراف التشريع القديم، نرى النبي في أواخر أزمان ذلك العهد، يهيئ السبل إلى كمال أسمى: فلنندفع إذن متبعين هذا القانون الجديد الجميل، ولنبتعد عن كل ما يَشيننا، وليمتنع كل واحد عن ترك امرأته والتزوج من امرأة مطلقة.

وبالفعل بأي عين نستطيع أن ننظر إلى زوجها؟ ألا يندى الجبين بالخجل أمام أصدقاء وخدام هذا الرجل المهان؟ إذا تزوجت أنت يا هذا بامرأة مترملة، فمجرد تصوّر وجه رجلها الراحل يسبب لك الاشمئزاز، ويترك لك انطباعاً ثقيلاً. كيف تشعر بذاتك، حين تتزوج بامرأة متزوجة، ويكون امام عينيك شخص زوجها الحي باستمرار؟ بأية حال نفسية تدخل إلى بيتك؟ ما هو شعورك، وما هو نظرك عندما تجد في حضرتك امرأة هذا الرجل؟ وماذا أقول؟ امرأة هذا الرجل؟ ليست بامرأته، لأنها تركته. ماذا إذن؟ أهي امرأتك أنت؟ وليست أيضاً امرأتك أنت! وليس لها الحق أن تكون امرأتك. من هي إذن؟ هي زانية، وليست امرأة لأي شخص. داست ارتباطاتها الأولى برجليها. وارتباطها معك ليس له أية قيمة.

أفلا ينبغي أن تُعد من فاقدي الشعور لإدخالك إلى بيتك مثل هذه الويلات؟ أي عذر لك؟ هل عسر عليك وجود امرأة؟ يا له من جنون مطبق يقع فيه الإنسان عمداً! وذلك بأن يكون لديه المجال مفسوحاً لأن يعيش في زيجة طاهرة، ومرتاح الضمير، فيتكدس في هذه الزيجة المحرمة، معطلاً أعمال بيته، زارعاً بذور حرب في قلب عائلته، مضرماً في كل مكان نار الحقد ضده، ومستنزلاً عليه اللعنات من كل الأفواه، وجالباً لنفسه ما هو أفظع من كل ما ذكر، أي قصاص الله الهائل في يوم القضاء الأخير.

وفعلاً. ماذا ستجيب يومئذ هذا القاضي عندما سيقيم قضاءك أمام عينيك؟ وبعد أن يقرأ حكمك، يقول لك: كنت قد منعتك من أن تتخذ امرأة منفصلة عن زوجها، وكنت قد قلت لك أن هذا العمل هو زناً. فكيف تجرأت إذن أن تعقد مثل هذا الزواج المحرم؟ ماذا ستقول؟ وبماذا ستجيب؟ ولست بمستطيع يومئذ أن تتنصل من عملك، وأن تستند على قوانينك المدنية؟ فإنك ستقاد، من غير أن تفوه بكلمة، موثقاً إلى نار جهنم لتجتمع فيها إلى الزناة والزواني، وكل الذين لم يحترموا حقوق الزواج. لأن كل الذين يطلقون زوجاتهم، لغير سبب الزنا، والذين تزوجوا بالمطلقات لغير سبب الزنا، سيذهبون إلى النار الأبدية. وإني لأنصحكم أيها الرجال، وأرجوكم، بل أتوسل إليكم أن لا تتركوا نساءكم، وكذلك النساء بأن لا يتركن رجالهن. وتمسكوا جميعاً بكلام القديس بولس الرسول القائل: "المرأة مرتبطة بالشريعة ما دام رجلها حياً. فإذا مات رجلها فهي حرة أن تتزوج من أرادت بموجب الناموس والأفضل لها أن تبقى بغير زواج".

وبالواقع، إذا كان بولس يجد حرجاً في أن يسمح للأرملة أن تتزوج ثانية، ويظهر أنه لا يوافق إلا بأسف على أن يسمح للأرملة أن تتزوج بعد وفاة زوجها، فعلى أي مستند يستند الرجل الذي يقدم على أن يتخذ المرأة وزوجها حي؟ فأي عذر يكون لأولئك الذين يتزوجون بالنساء المطلقات غير عذر الرجال المتزوجين الذين يركضون وراء النساء العموميات؟ لأنه ليس في هذا العمل سوى نوع آخر من الزنا. وقل الشيء ذاته في امرأة متزوجة تتخذ رجلاً غير متزوج، عبداً كان أم حراً، فإنها تقع في الزنا، كالرجل المتزوج الذي يزني مع امرأة غير متزوجة بغياً كانت أم امرأة أخرى.

اهربوا، إذن، من هذا النوع من الزنا. لأنه أي موجب تجدون للوقوع فيه، وأي عذر تقدمون عنه؟ أشهوة الحواس؟ ولكن امرأتك التي في بيتك والتي أعطاك إياها الله تنزع منك كل عذر، ومن أجل هذا بالضبط، من أجل اجتناب الزنا أعطاك الله الزواج.

هذا وليس وجود امرأتك وحده هو الذي يرد عليك كل عذر، بل إنما هي الحياة المنتظمة لجماعات الرجال الآخرين الذين لهم الحواس نفسها، والشهوة الجنسية ولهم الطبيعة نفسها التي لك. فعندما ترى كل الرجال الذين يحسون كما تحس، ولهم جسد كجسدك، وشهوات كشهواتك، وحاجات كحاجات طبيعتك، لا يسعون وراء أية امرأة غريبة عنهم، ويبقى كل واحد أميناً لزوجته محباً لها، فأي عذر تقدم عن نفسك أنت؟ وماذا تقول لنا عن حاجات حواسك؟

ولكن لماذا أعرض لك أمثلة من حياة المتزوجين الطبيعية؟ أليس حولك رجال يعيشون حياة البتولية الدائمة لا يعرفون الزواج؟ وعندما تجد حولك كثيرين يستطيعون أن يمارسوا حياة الطهارة دون اعتماد على الزواج، فأي عذر تقدمه عن ذاتك، وأنت الساعي، بعد الزواج، إلى الزنا والفسق والفجور؟

والآن أتوجه إلى الجميع، الرجال والنساء والأرامل وغير الأرامل، لأن الناموس الموضوع بواسطة بولس الرسول هو لكل الناس: "الامرأة هي مرتبطة بالشريعة ما دام رجلها حياً. فإذا مات رجلها فهي حرة أن تتزوج من أرادت بموجب الناموس والأفضل لها أن تبقى بغير زواج".

والمتزوجة لا يحق لها أن تتساءل إذا كانت تستطيع أن تقترن برجل آخر في حياة زوجها ما دامت تعرف أنها، في حياة زوجها، "هي مرتبطة بالشريعة". وأما الأرملة فإذا أرادت أن تتزوج، فلها الحرية، ولكن بناموس الرب، أعني بكل لياقة وأدب. وإذا فضلت على العكس أن تبقى أمينة إلى زوجها الراقد، فإنها تجد في كلام القديس بولس تطميناً لها على سعادة كبيرة في هذا العالم، ووعداً بمكافأة كبيرة في العالم الثاني: "الأفضل لها أن تبقى بغير زواج". ألا ترون أن الرسول الإلهي الذي يعرض الأمر لفائدة الجميع، كيف يريد أن يشفق على ضعف البعض دون أن يحرم الأكاليل للذين يستحقونها؟ ونجد هنا، عندما يتكلم عن الزواج الأول والثاني، نفس الحكم الذي له عن الزواج والبتولية. فكما أنه يتحفظ من تحريم الزواج حتى لا يضع عبئاً ثقيلاً على كاهل الضعفاء، ولا يجبر عليه من يفضلون البتولية حتى لا يحرمهم أكاليل الاستحقاق، يصرح جهاراً بقدسية الزواج مع اعتباره أفضلية التبتل، كذلك هنا يعلن أفضلية عدم الزواج بعد الترمل على الزواج بعده، باعثاً نشاطاً جديداً إلى نشاط الأقوياء ذوي التحمل، مع تحفظه من جهة ثانية من أن يسبب المعثرة للضعفاء.

وبعد أن قال: "تكون أسعد حالاً إذا بقيت كماهي، يقول أيضاً "بحسب معرفتي" (أو بحسب رأيي). ولكي لا يدعكم تتصورون أن الرأي هو رأيه، أضاف قوله: "ولكني أعتقد أن لي هنا رأي الرب". فلا تستطيعون إذاً أن تظنوا أن هناك رأياً خاصاً، فإنه فكر الروح القدس، فكر الله، وليس القديس بولس يتكلم هنا فقط بل الله نفسه، والقديس إنما هو الترجمان له. وإذا قال "أظن" فليس قوله عن تخمين، بل عن تواضع ليس إلا.

لقد قال إن المرأة التي تبقى أرملة بعد وفاة رجلها تكون أسعد حالاً، ولكنه لم يقل كيف تكون سعيدة. فقد اكتفى بأن يضع فكرته بوحي الروح القدس. ولكن إذا أردتم أنتم أن تبحثوا ما هي هذه المنافع، يسهل عليكم أن تكتشفوا عدداً كبيراً منها، وأن تلاحظوا بأن فضيلة الترمل لا يكون لها المكافأة في الحياة الثانية، بل في الحياة الحاضرة أيضاً لها منافع كثيرة.

وهذا ما كان قد عرفه جيداً القديس بولس عندما أشار إلى سمو البتولية وفضلها على الزواج: "الزواج هو حسن، وإذا تزوجت العذراء فلا تعمل سوءاً". ويريد هنا بالعذراء، لا تلك التي رفضت الزواج، بل التي لم تتزوج بعد، وليست عندها أية رغبة في البتولية الدائمة. ثم يضيف: "إن كل اللواتي يتزوجن يلاقين كل شدائد الزواج ومحناته ولا أقول لكم أكثر من هذا". يترك للمؤمنين أن يعددوها لأنفسهم: آلام الحمل والولادة، والاهتمام بالأولاد والقلق والهموم ممن كل نوع، والأمراض، والموت المبكر، والانزعاجات والخصومات، ومماشاة كل الأهواء والأذواق، والمسؤولية عن أخطاء الغير، وتراكمآلاف الآلام والأحزان في قلب واحد.

إن الأرملة التي تعتصم بالعفة والقناعة، تنجو من كل هذه البلايا، وفي حين أنها تكون قد تخلصت من مصائب هذه الحياة الحاضرة، تهيء لنفسها مكافأة كبيرة في الحياة الثانية. وكل هذه الاعتبارات يجب أن تقنعكم بالاكتفاء بامرأة زواجكم الوحيد.

وإذا جنحتم إلى زواج ثانٍ، فليكن على الأقل بمخافة الله، وبحفظ الشريعة. ولهذا قال الرسول: يجب أن يكون "في الرب". إنه يبيح لكم الحرية، ولكنه يضع حدوداً وناموساً لهذه الحرية.

والشيء الذي لا يريده الرسول هو أن تدخلوا إلى بيوتكم أناساً فاسدي الأخلاق والفاسقين والمهرجين، وذوي الخلاعة والمجون. وما يريده من الجميع هو أن يمارسوا العفة والطهارة والتقوى لأجل مجد الرب.

ولأن كثيرات من اللواتي ترمّلن، تعاطين الزنا بعد وفاة أزواجهن، وسلمن أنفسهن للدعارة، اضطر القديس بولس أن يضيف قائلاً: "على أن زواجهن يجب أن يكون في الرب"، لكي يجنبهن جرائم جديدة، وسقطات جديدة.

لا شك أن من الأفضل أنتبقى المرأة محافظة علىعهد زوجها الميت، ولا تتجاوز ذلك الاتحاد بينها وبينه وترتبط برجل غيره، وأن تحتفظ بعد موته بالعفة والقناعة، وأن تكرس وقتها واهتمامها لأولادها، وتستنزل بهذا العمل بركات غزيرة. ولكن إذا أردن أن يعقدن زواداً آخر بكل أمانة وشرف، وبموجب الناموس، فلا مانع من ذلك البتة. إذ ليس المحرم والممنوع سوى فعل الزنا والفجور.

فلنهرب إذن من الدنس سواء أكنا متزوجين أم غير متزوجين! ولا ندنس حياتنا، ولا نعرض وجودنا للإحتقار، ولا نوسخ جسدنا، ولاندخل التوبيخ إلى ضميرنا.

وفعلاً، كيف يتجاسر الانسان أن يدخل إلى الكنيسة بعد خروجه من بيت الدعارة؟ كيف يجسر أن يرفع بالابتهال يدين عانقتا بغياً؟ كيف يجسر أن يدعو الله بلسان وشفتين قبّلتا فاجرة؟ وبأي نظر يستطيع أن ينظر إلى أصدقائه المحترمين؟ ولماذا أذكر أصدقاءك؟ ولو أن كل الناس يجهلون سلوكك، فلن تعرف مع هذا، كيف تتخلص من شعورك بالخجل تجاه دنسك، ولا تفر من الاشمئزاز حين تنظر إلى جسدك. وإذا لم يكن الأمر هكذا، فلماذا تسرع إلى الاغتسال بعد خطيئتك؟ أليس لأنك تشعر نفسك مغطىً بأوحال هي أبشع من كل لطخة وعار؟ وأي برهان أكبر من هذا البرهان تقدمه على دنسك؟ وكيف نتصور موقف الله منك عندما تلفظ أنت أيها المجرم القصاص والحكم على ذاتك؟

أنت يا هذا تعترف بدنسك: هذا حسن وأنا أهنئك على هذا الاعتراف. وما يؤخذ عليك هو خروجك بغير نتيجة من هذا الاعتراف، وعدم اتخاذك الوسائل الفعالة لكي لا تعود، من الآن فصاعداً، إلى الدنس. لأن هذه اللطخة لو كانت لاحقة بالجسد فقط، لكان الماء وحده كافياً لمحوها. ولكن النفس هي التي توسخت واسودت، وهي التي يجب أن نفتش على تطهيرها من الأوساخ التي لحقت بها. ففي أي ماء يجب أن نغسل هذه اللطخة؟ أجل في ماء الدموع السخينة، والتنهدات الصاعدة من أعماق القلب، بالندامة الصادقة، والصلوات الحارة، والحسنات الكثيرة، وبالشكاية على النفس وتبكيتها، وفي قطعنا العهد على ألا نعود إلى الوقوع فيها. أجل هكذا تُغسل هذه اللطخة، وهكذا تُطهر النفس. وبغير هذه الطريقة، لا تزيل عن نفسك ذرة من هذه اللطخة، ولو صببت على جسدك كل مياه الأنهار.

ولا شك أن الأفضل لنا ألا نجرب هذه الخطيئة المخزية. ولكن، إذا حدث أن نقع فيها، فلنستعمل كل الأدوية التي تتطلبها هذه الخطيئة، بعد أن نعد الله ألا نعود نقع فيها. لأنه بعد أن نعترف بخطايانا، ونرجع إليها بغير انقطاع، فما هي فائدة التوبة؟ وأن يغتسل المرء ثم يعود إلى التمرغ في الأوحال، وأن يخرب ما كان جدده، ويجدد ما كان خربه، معنى هذا تضييع الوقت وقتله سدىً.

فيجب علينا إذن ألا نشتغل سدىً. ولكي لا نفسد حياتنا كلها، علينا أن نطهر أنفسنا من خطايانا السالفة، وأن نعيش م الآن فصاعداً، حياة طاهرة نقية ومزينة بكل انواع الفضائل ليكون الله عطوفاً علينا، ورؤوفاً بنا، ويكسبنا ملكوت السموات بنعمة سيدنا يسوع المسيح الذي له ينبغي كل مجد الآن وكل آن وإلى دهر الداهرين. آمين.

**الحديث الثالث**

**اختيار الزوجة**

لقد ساءني أني ما أتممت حديثي إليكم في المرة السابقة ولكني اتـعزى إذ أرى أنكم حفظتم كل ما قلته، وأنكم أفدتم منه كثيراً. إن رفيقي في العمل (الروح القدس) قد حفر الاثلام العريضة في أرض نفوسكم. ومن وحيه الخصب، ألقي فيها بذار كثير، وأنا متأكد أنها أخصبت كثيراً. ولقد سمعتم أقوالا رائعة، في ديباجة حسنة، وارتويتم من الينابيع الفائضة من الحياة الخالدة، ورأيتم دفقات من الذهب الصافي تتموج أمام أعينكم.

وإذا قلنا مياه هذا الحديث تتدفق بالذهب فلا نعني أن الذهب نفسه يجب أن يكون من انتاج هذه المياه بل نعني أن النهر عندما يجتاز الجبال الحاوية ذهباً، يجرف طمىً محملاً ذهباً ويفرق الخيرات على ضفافه، ويوزع كذلك الكنوز على شاطئيه. وقد جاء واعظكم في المرة الأخيرة يحاكي هذا النهر. فبعد أن طاف هو أيضاً جبالاً غنية بالمعادن، وحمل معه من ذهب الكتاب المقدس، نشر بينكم تعاليمه، ووزع على نفوسكم كنوزاً أثمن من كل ذهب العالم.

أما اليوم، فإن كلامي، كما أعرف، سيظهر لكم هزيلاً بالنسبة إلى السابق. فإذا أكل الإنسان المعتاد دائماً على الطعام الخشن، لمرة واحدة، طعاماً على مائدة غنية بألوان الطعام، يحس بثققل فقره، عندما يعود إلى المعتاد من طعامه.

على أني لست أتقاعس عن واجبي من أجل ذلك. وبعد هذا، فأنتم تعرفون، بعد أن تعلمتم من القديس بولس، تعرفون أن تشبعوا، وأن يكون بكم جوع، وأن يكون عندكم كل شيء، وأنتم تعدمون كل شيء، وأن تحترموا الأغنياء، ولا تحتقروا الفقراء. وكما أن أصحاب الخمرة، إذا كانوا يشربون بلذة الخمرة الجيدة، لا يحتقرون، لأجل ذلك الخمرة الدون، كذلك أنتم أيها المستمعون المؤمنون للكلام الإلهي، إذا تهيأ لكم أن تتمتعوا بسماع الخطباء البارزين، ثم دعيتم إلى سماع وعاظكم الاعتياديين، فلا تتأخرون عن سماع هؤلاء أيضاً باندفاع وحماس. وأن الذين لم يعتادوا في حياتهم سوى الموائد الغنية ينتهي بهم الأمر إلى التخمة وفقدان الشهية. وأما الذين تحفظ لهم حياتهم الخشنة الشهية بدون انقطاع، ويكون بهم دائماً جوع وظمأ إلى الطعام والشراب، يتسارعون دائماً بنفس الشهية إلى الموائد المتواضعة.

ولست أقول هذا لأجاملكم. ولكن هذا ما لاحظته جيداً في خطابي الأخير. فبعد أن حدثتكم طويلاً عن الزواج، وبعد أن بينت لكم بوضوح أن من يترك امرأته، ويتزوج بمطلقة، فإنما يكون فعل الزنا، وأوردت لكم كلام السيد المسيح "الذي يتزوج بمطلقة يزني، والذي يطلق امرأته، إلا لعلة الزنا فقد جعلها تزني"، لما قلت لكم هذا، رأيت بينكم أناساً أطرقوا رؤوسهم، ولطموا على جباههم، ولم يجسروا أن يرفعوا وجوههم.

ولما حوَّلت وجهي عندئذ نحو السماء، قلت في نفسي: فليكن اسم الرب مباركاً لأنه لم يجعلني أتكلم مع أموات، وجعل لكلامي مثل هذا الصدى العميق في نفوس سامعي! لا شك أنه من الأفضل للإنسان ألا يقع في الخطيئة، ولكنها على كل حال، خطوة كبيرة يخطوها الإنسان في طريق الخلاص، أن يعرف خطاياه وأن يبكي، ويلطم صدره. لأن هذا الاعتراف بالخطايا، هو بدء التدبير، وهو الذي يقود إلى عدم الخطأ. ولهذا السبب نرى أن القديس بولس الرسول كان يتباهى بأنه أبكى الخطأة، ليس لأنه سبب لهم الألم، بل لأنه قادهم، عن طريق الألم، إلى التوبة. فقد قال للكورنثيين "إنني أفرح لا لأنكم في حزن، بل لأن حزنكم قادكم إلى التوبة" (2كور 7: 9).

وسواءٌ أبكيتم على خطاياكم، أم على خطايا غيركم، فإنكم تتنقون كثيراً بدموعكم. وإذا أنتم بكيتم على خطايا الآخرين، فتكونون قد كشفتم عن نفس رسولية، وتتلاقى دقات قلوبكم مع دقات قلب بولس الرسول الذي كان يصرخ: "من يسقط ولا أضعف أنا؟ من يشكك ولا أحترق أنا"؟ (2كور 11: 29). وعندما تبكون على خطاياكم الخاصة، فإن دموعكم تطفئ النار التي تشب من جديد لتسقطكم في الخطايا مرة أخرى، وتشق لكم الدموع طريقاً ثانية لمستقبلكم.

ولهذا عندما رأيتكم تهزون رؤوسكم وتقرعون صدوركم وتنتحبون، كنت أغتبط بأن أرى حزنكم يأتي ثماره فيكم.

ولهذا سنواصل اليوم بحثنا السابق في نفس الموضوع، ونكشف للذين يريدون أن يدخلوا في الزواج، أيّ تهيؤ جادٍ يجب أن يتهأوا به ليدخلوا إلى الزواج.

وفي الواقع نرى أنه عندما يقتضي الأمر شراء بيت أو تعيين خدام، فلا نهمل شيئاً من الحيطة والتحفظ والحذر وطرق المعاملة مع أصحاب الملك وأسياد العبيد، لنعرف حالة البناء من الداخل والخارج وأخلاق الأشخاص. فلكَم ينبغي، بالأحرى، من الحيطة والحذر والتعمق في البحث والاستعلام لمن يريد أن يختار عروساً له؟!

ذلك لأن الأمر هنا يختلف أهمية عن ذاك. لأن البيت الذي تشتريه، تستطيع أن تبيعه أو تبدله إذا لم يعجبك، ولكنك حالما تعقد الزواج على ابنة فلن تستطيع أن تبدلها أو تردها إلى أهلها، ولا تستطيع أن تنفصل عنها أبداً إلا في حالة الزنا وفق الناموس الإلهي.

فعندما تريد أن تتزوج فلا تكتف باعتبار القانون المدني. إقرأ أولاً الناموس المسيحي، لأنه بحسب هذا الناموس، لا بحسب غيره يحاكمك الله. فإذا خالفت القانون المدني، فإنك تستطيع أن تدفع المخالفة من مالك، ولكن إذا خالفت ناموس الله، أغرقت نفسك في بحر العذاب الأبدي وكردستها في النار الخالدة.

وعندما يريد أحدكم أن يعقد زواجاً، فسرعان ما يذهب إلى المحامين، ويجلس في مكاتبهم، يستفهم منهم بدقة عن كل ما يحدث فيما لو ماتت المرأة بغير أولاد، أو تركت ولداً واحداً أو اثنين أو ثلاثة، وعماذا تعمل بأموالها إذا كان لها أب حي، أو لم يكن لها، وتسأل عما يصيب أخوتها وما يصيب زوجها من مالها، وفي حالة عودة كل أموال المرأة إلى زوجها، أو في حالة عدم ثبوت الحق لزوجها بشيء. وبالإجمال فإنه يستعلم عن لائحة من الأسئلة والأجوبة لا حصر لها، ويتخذ الاحتياط والحذر من كل ناحية.

وإذ ذاك، أفليس من الغرابة أن تبذل من الاهتمام إلى هذا الحد، عندما يكون الأمر أمر فقدان دريهمات قليلة، وألا تهتم وتحسب الحساب لخسارة نفسك الخالدة، في حين أن نفسك يجب أن تقتضيك من الاهتمام والانشغال أكثر من أي شيء آخر في الوجود؟

لأجل هذا أوصيكم وأنصحكم إذا أردتم الزواج، بأن تذهبوا وتطلبوا القديس بولس الرسول، وأن تستوضحوا منه القوانين الحقيقية للزواج، وأن تسألوه ماذا يجب أن تفعلوا عندما يكون لواحد منكم امرأة خبيثة أو فاسدة، أو سكيرة أو شتامة أو كاذبة، إلى غير ذلك من الرذائل والخصال التي تسبب لكم المشاكل البيتية. فإذا وجدتم أن القديس بولس بولس يسمح لكم، من أجل هذه الرذائل، أن تطلقوا نساءكم، فليس في الأمر مجازفة ولا صعوبة. ولكن إذا وجدتم أنه على العكس، لا يخولكم أية سلطة في تطليق المرأة لغير علة الزنا، ويوصيكم دائماً أن تبقوا على محبتكم للامرأة التي تجتمع فيها مثل هذه الرذائل والخصال والمحافظة عليها، فيجب أن تكونوا مطمئنين، ثابتي العزم على إزالة رذائلها، وتغيير عاداتها.

ينبغي إذن اتخاذ الاحتياط، قبل الزواج، في التفتيش عن المرأة التي يكون بين طباعي وطباعها توافق، الامرأة الطيبة الكريمة المطيعة. وبعد أن تكون فحصت كل شيء، ووزنت كل النتائج، وإذا حصلت عليها فإنك تربح شيئين مهمين جداً: الأول هو أنك لا تعود ترغب مطلقاً في فصلها عنك. والثاني أنك تستطيع أن تحبها محبةً لا حد لها، المحبة التي يطلبها منك القديس بولس الرسول.

لأنه بعد أن قال: "أيها الرجال أحبوا نساءكم" (أفس 25:5)، لا يكتفي بأن يوحي بمحبتهن بل يعين مقياس ومدى هذه المحبة فيضيف: "أحبوهن كما أحب المسيح الكنيسة". وقل لنا يا بولس كيف أحب المسيح الكنيسة؟ "إلى حد أن يحتمل الموت لأجلها". وإذن فإذا كان يجب عليك أن تموت في سبيل امرأتك فلا ينبغي أن تتردد! لأنه إذا كان السيد قد أحب عبدته حتى أنه قدم ذاته من أجلها فينبغي بالأولى على العبد أن يحب إلى هذا الحد رفيقة عبوديته.

ولا تظنوا أن ما جذب المسيح كان جمال عبدته أو حتى فضائل نفسها. كلا! بل إنها كانت ملطخة ومدنسة كما سنراها. فبعد أن قال أن "المسيح بذل نفسه لأجلها"، يضيف بولس الرسول قائلاً: "ليقدسها ويطهرها". فإذا كان طهرها، فهذا طبعاً دليل توسخها وتدنسها، وليس بلطخة بسيطة، بل بأبشع اللطخات بالوحل والدم. جاء المسيح ليفتقد عروسه كنيسة العهد القديم ويخطبها لعهد جديد، فوجدها عريانة مطروحة في العراء، تسفعها الهاجرة، موسخة ملطخة بالدم، فغسلها وطهرها وألبسها أبهى الثياب، وضمخها بالطيب وصعد بها إلى السماء.

هكذا يجب عليك أن تفعل أنت أيها المسيحي. إذا ارتكبت امرأتك نحوك ألف خطيئة، فاصفح لها، وتناس أخطاءها. هل فيها عيوب أخلاقية؟ يجب أن تفعل كل ما بوسعك لكي تقوِّم اعوجاجها وتصلحها، كما فعل المسيح بكنيسته. فإنه له السجود، لم يكتف بتطهيرها من أدران الخطيئة، بل منحها شباباً جديداً، بإزالة كل غضن، وبنزعه الإنسان القديم، وإلباسها الإنسان الجديد. وهذا ما أراد أن يقوله بولس الرسول: "إن المسيح أراد أن يقتني لنفسه عروساً نقية لا دنس فيها ولا وسخ"، فلم يكتف بأن يعيد لها جمالها، بل أعاد لها شباباً وجمالاً ليكونا زينة النفس لا الجسد. والأعجب من هذا أيضاً هو أن هذا العريس لم يثنه عن حب هذه العروس لا قبحها ولا هرمها، ولا قذارتها، بل بذل لها حياته ليعيد لها جمالاً جديداً. بل الأعجب أنه مازال يحتفظ بها على الرغم من كل قبائحها وعيوبها. بل حين يكون أبعد من أن يطرحها خارجاً نراه يستعمل كل وسيلة لشفائها وإصلاحها وتجديدها. فكم هو عدد الذين وقعوا في الخطيئة فعلاً بعد اعتناقهم الدين المسيحي؟ ومع هذا فإن السيد لا يطرحهم خارجاً.

ألا تتذكرون قصة ما جرى في كورنثوس؟ أعني قصة ذلك العضو من أعضاء الكنيسة الذي تدنس بالزنا. تدنس ولكن لم يُقطع من جسد الكنيسة، بل عولج شيئاً فشيئاً حتى تعافى. وكنيسة الغلاطيين ضلت، بكاملها، الطريق القويم وتهوّدت (مالت إلى اليهودية)، ولم تُرفضْ ولم يُستغنَ عنها من أجل هذا ، والسبب أن بولس اجتهد وسعه حتى يقتادها إلى الطريق السوي. واعتبر بما نتصرف به تجاه الجسد. إذا أصاب المرض جزءاً منه، فإننا لا نبادر فوراً إلى قطع ذلك الجزء، بل نحاول فقط أن نرد إليه العافية. وهذا ما يجب أن تفعله مع امرأتك. إذا كان فيها عيب تنكره عليها فليس يقتضي الأمر صرفها وتطليقها، بل معالجتها.

إننا نستطيع تقويم الخطأ. وأما العضو المريض فلا نستطيع شفاءه، ومع هذا لا نقطعه من جسمنا حتى في هذه الحالة. وكثيراً ما يحدث أن يكون أحدنا مكسور الرجل، وذا يد يابسة أو ميتة، وذا عين لا تبصر، ومع هذا فلا يعمد إلى نزع عينه، أو قطع يده، أو قطع رجله أو ساقه. وعلى الرغم من عدم فائدة هذه الأعضاء، وتشويهها الجسم كله، يحتفظ بها نظراً إلى ارتباطها بباقي أعضاء الجسد. فهل يعقل أ، نثبت على الأمل بقوة، حيث لا أمل بالشفاء، ولا علاج للعضو، ونقطع الأمل من المعالجة والشفاء حيث يكون لنا أكبر الأمل، وأوفر الحظ بالنجاح؟

فعندما تكون الطبيعة هي التي حرمتك من عضو، ولا يعود ممكناً استعماله أو الاستفادة منه، ترضى بذلك الواقع وتقبله، ولكن عندما يكون هنا اعوجاج خلقي، يتطلب، لتقويمه، إرادة صالحة وحازمة فقط، ويمكنك بالتالي أن تقوِّم هذا الاعوجاج، فلا ترضى بذلك! حتى ولو أنك ادعيت بأن امرأتك ذات داء لا شفاء له، وإنها بقيت على عيبها بالرغم من الجهود التي بذلتها معها، فإن هذا لا يعطيك الحق في فصلها عنك. ما دام العضو الغير قابل للشفاء لا يقطع من الجسم، فإن امرأتك هي عضو من جسدك: "ويصير الاثنان جسداً واحداً".

إذا مرض جسدك وتبين لك أنه لا شفاء له فإن كل جهودك في معالجته تذهب سدى ولا فائدة لك منها. ولكن على عكس هذا فإن كل ما تبذله من جهود وأتعاب لإصلاح امرأتك، ولو كانت غير قابلة الإصلاح، فإنه يذهب سدىً وبدون مكافأة، لأن الله يكافئك بغزارة على صبرك في طاعته، واحتمالك دون تذمر ودون غيظ معايب امرأتك، وعلى عدم قطعك ذلك العضو من جسدك.

ذلك لأن امرأتك هي، بالنسبة إليك، عضو لا ينفصل، وأنه لأجل هذا بالضبط يجب أن تحبها. وهذا هو أيضاً ما يعلمنا إياه القديس بولس الرسول حيث يقول: "فيجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم، لأنه ما من أحد يبغض جسده قط، بل يغذيه ويربيه كما يعامل المسيح الكنيسة، لأننا نحن أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه" (أفس 5: 28،30). ثم يقول كما أن حواء خرجت من جنب آدم، هكذا نحن خرجنا من جنب المسيح: "نحن لحم من لحمه، وعظم من عظامه". وخروج حواء من جنب آدم أمر معلوم لدى الجميع، والكتاب المقدس يخبرنا عنه بصورة واضحة إذ يقول: إن الله ألقى على آدم سبات نوم، واستل إحدى أضلاعه، وصنع منها المرأة. أما الكنيسة فكيف ومتى خرجت من جنب المسيح؟ وأين نجد خبر صنعها؟ أجل إننا نجد ذلك في هذه العبارة من الإنجيل المقدس، بعد أن علق المسيح على الصليب ومات: "وإن واحداً من الجند اقترب منه، وطعن جنبه بحربة، وللوقت خرج من جنبه دم وماء" (يو 19: 24). فمن هذا الماء، ومن هذا الدم، صنعت الكنيسة. وهذا الشاهد يقول هو لنا: "من لم يولد من الماء والروح لا يستطيع أن يدخل ملكوت السموات" (يو 3: 5). فبالروح يعني الدم. بماء المعمودية نولد، وبدم المسيح نتغذى. أرأيت الآن كيف أننا لحم من لحمه، وعظم من عظامه؟ لأننا من الماء الطاهر والدم الكريم نولد ونغتذي. وكما أنه في أثناء نوم آدم صنعت المرأة، هكذا ففي أثناء رقاد المسيح الأخير، أُخذت الكنيسة من جنبه.

ولا ينبغي للإنسان أن يحب امرأته لأنها عضو من جسده، وقطعة من كيانه فقط، بل ولأن الله يسن لنا ناموساً وواجباً حيث يقول: "لأجل هذا يترك الإنسان أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، فيصير الاثنان جسداً واحداً" (تك 2: 24).

وإذا كان القديس بولس يذكرنا هنا بهذا الناموس، فلكي يقتادنا من جميع الطرق إلىهذه المحبة.

واعجبْ هنا حقيقة بحكمة هذا الرسول: إنه لا يقتاد الرجال إلى محبة نسائهم بالناموس الإلهي وحده ولا بالناموس الطبيعي وحده، بل بكلا الناموسين معاً، بحيث يجد ذوو العقول الراقية، في الناموس الإلهي الروحي سبب محبة نسائهم، كما يجد العاديون هذا السبب في الناموس الطبيعي البشري.

إن الرسول يبدأ بمثل المسيح: "أحب امرأتك كما أحب المسيح الكنيسة". ثم ينتقل إلى الأسباب الطبيعية: "على الرجال أن يحبوا نساءَهم كأجسادهم". ثم يستند من جديد إلى مثال المسيح: "لأننا نحن أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه". ثم يعود ثانية إلى الأسباب الطبيعية: "لأجل ذلك يترك الإنسان أباه وأمه، ويلتصق بامرأته فيصير الاثنان جسداً واحداً". وبعد أن يذكر بهذا الناموس يضيف قائلاً: "إن هذا السر لعظيم هو". أي سر هذا؟ هلاّ قلته لنا أيها الرسول! أليس من قبيل السر العجيب أن الفتاة التي تكون، إلى عهد الزواج، موجودة في بيت أهلها، تبدأ في يوم واحد، تحن إلى رجل لم تره قبلاً، وتحبه كما تحب جسدها؟ أو ليس أيضاً من قبيل السر العجيب أن الرجل يتعلق في يوم واحد، بحب فتاة لم يكن قد رآها من قبل، ولم تكن تربط بينه وبينها أية علاقة، وإذا به يفضلها حالاً، على كل الناس، على جميع أصدقائه وأقربائه حتى وعلى أبويه؟. أوليس أيضاً من قبيل السر أن الوالدين اللذين، إذا انتزع أحد الناس لهم مالاً، ينتفون شعورهم وينتحبون، ويجرون إلى المحكمة الذي سرقهم مالهم، أليس من قبيل السر أن نراهم في الزواج، يعطون غلى رجل لم يروه قط، ابنتهم الغالية ويعطونه معها قسماً كبيراً من ثروتهم مهراً؟ أوليس من الغريب أنهم، إذ يكونون أبعد من أن يجدوا، في هذه العطية خسارة، يغمر الفرح قلوبهم. وحينما يرون ابنتهم خارجة من بيتهم، فإن ذكرى وجودها عندهم لا يوقفهم، لحظة واحدة، عن القبول بخروجها من بيتهم، وبدلاً من أن ينتحبوا وينتفوا شعورهم، تراهم يجزلون الشكر لله، ويعتبرون ذهاب ابنتهم ومالهم بركة من بركات السماء؟!.

فتأمل بما رأى القديس بولس هنا. لقد رأى هذين المخلوقين يترك كل منهما أباه وأمه ليتحد الواحد منهما بالآخر بأوثق الروابط وأمتنها. رأى الماضي الطويل يذوي ويمحي ويختفي في تلك الساعة، ساعة الزواج، فتيقن أن هناك شيئاً يتجاوز حدود التصور، وأن الله وحده قد استطاع أن يغرس في أعماق القلب البشري مثل هذه النوازع والانجذابات القادرة أن تجعله يقبل بفرح مثل هذا الهجران للأهل والأقرباء ومثل هذه التضحية. وهذا ما أدركه الرسول وما جعله يهتف: "إن هذا السر لعظيم".

فكما أن الطفل، قبل أن يحسن النطق، يتعرف حالاً إلى أبويه من مجرد نظره إليهما، هكذا نجد أ العروسين تكفيهما نظرة واحدة تتلاقى بها أعينهما حتى يتحد الواحد منهما بالآخر من غير أن يدفعهما أحد إلى مثل هذا الاتحاد.

وهذا ما رآه القديس بولس حاصلاً تماماً بين المسيح والكنيسة، فوجد فيه ما أغرقه في الدهشة والعَجب! فما الذي جرى بين المسيح وكنيسته؟ فكما أن الرجل يترك أباه وأمه، هكذا ترك المسيح عرش أبيه ليلتصق بكنيسته، ولم ندعه نحن إلينا، بل هو الذي تنازل نحونا. وحين نقول إنه ترك عرش أبيه، فلا يجب أن نفهم من ذلك أنه ترك ألوهيته، بل الألوهية هي التي نزلت نحونا. لأنه مع كونه معنا، كان مع أبيه ولأجل هذا السبب أيضاً قال القديس بولس: "إن هذا السر لعظيم".

إنه سر عظيم من وجهة النظر الطبيعية البسيطة. أما من وجهة النظر إلى المسيح وكنيسته فإن هذا السر يغرقنا في بحر من الدهشة والعجب. ولهذا، فبعد أن قال القديس بولس: "إن هذا اسر لعظيم"، أضاف قائلاً: "وأنا أقول هذا بالنسبة إلى المسيح والكنيسة".

أما الآن، وقد عرفتم عظمة السر الذي في الزواج، وعرفتم ذلك الاتحاد السامي الذي يخلقه بين الزوجين، فعليكم أن تقدروه قدره، وألا تنظروا إليه كمعاملة مادية مالية، فالزواج ليس تجارة بيع وشراء، بل هو تجارة حياة.

ولَكَمْ سمعت من الناس من يقولون: إن فلاناً كان فقيراً فصيّره الزواج غنياً. لقد تزوج من امرأة غنية، فهو الآن ينعم بالغنى ورغد العيش! ماذا تقول أيها الجاهل؟ أوَ هل تريد أن يكون لك الزواج مهنة يدر عليك مالاً؟ أو لست تخجل؟ أوَ تبلغ القحة والجهل بك إلى حد تصريحك بمثل هذا الشيء؟ أوَلا يكون باطن الأرض أحب إليك من ظاهرها لمجرد تفكيرك مثل هذا التفكير، بمثل هذه التجارة المخزية؟ هل يمكن أن يفتكر بكلامك أنه كلام رجل؟

إن الدور الوحيد الذي تقوم به المرأة هو محافظتها على المال الذي أتاها من أبويها، وفي حين استعمال عائدات البيت، والاهتمام بشؤون هذا البيت وواجباته. لأجل هذا السبب أعطاها الله للإنسان. ومن أجل هذه الأمور وماشابهها جعلها الله للرجل عوناً وسنداً.

يتقاسم حياتنا نوعان من الأعمال: الأعمال العامة، والأعمال المنزلية. وقد أعطى الله لكل من الرجل والمرأة نوعاً من الأعمال: فجعل المرأة على الأعمال البيتية، والرجل على الأعمال العامة. أعمال الرجل في السوق، وفي المحاكم، والمجالس والجيش. وإذا كانت المرأة لا تحسن حمل الرمح والسيف، فإنها تستطيع النسج والحياكة وتتميم الأعمال البيتية كلها. وإذا لم يكن لها صوت في مجلس الشيوخ فإن لها رأيها في المنزل. والمرأة، في شؤونها المنزلية، أكثر فهماً واتفاقاً من الرجل في شؤونه الخارجية. وهي مؤهلة أن تربي الأولاد تربية حسنة، والأولاد هم عماد الأسرة. وتعرف أن تسيطر على الخدام وتراقب تصرفهم، وتزيل الهم عن قلب زوجها وتريحه من كل اهتمام بشؤون المنزل من مؤونة وكسوة وطعام وسائر الأشغال التي لو كلف بها الرجل لوجد فيها صعوبة كبرى.

وفي هذا أيضاً يظهر لطف الحكمة الإلهية في إقامة الرجل على الأعمال الكبيرة، وهو في عدم تفرغه وقابليته للأعمال الصغيرة، وفي جعله دورة المرأة لا بد منه في كل ناحية من نواحي ضرورات الحياة والوجود.

ذلك أن العناية الإلهية، لو أنها جعلت من الجهة الواحدة، الرجل قادراً على القيام بكلا الدورين لكانت انزلت المرأة منزلة الانحطاط. ولو أنها، من الجهة الأخرى، أسندت إلى المرأة الأعمال الهامة مثل الرجل، لكانت قد خلقت عندها تباهياً لا حد له. فانظر السبب الذي من أجله لم يجمع الله الدورين في الرجل وحده، حتى لا ينتقص من المرأة. ولم يجعلهما كليهما في مساواة الدورة والواجب حتى لا يكون بينهما تنازع واختصام، وحتى لا تسابق المرأة الرجل على التقدم...

... وبما أننا نعرف كل هذه الحقائق، فلا نطلب في الزواج سوى شيء واحد، أعني فضائل النفس، والصفات الأخلاقية، حتى يسود السلام في بيوتنا، ونقضي فيها حياتنا في وحدة تامة، وحدة في الأخطار والعواصف...

... فإذا كنا نبتغي السعادة، فلا نلتمس الثروة. لنطلب أولاً وقبل كل شيء السلام. ولم يكن الزواج ليملأ البيت مشاجرات ومخاصمات وقتالاً واشتباكات. ولم يكن الزواج ليقيم في البيت حزبين متناظرين، وليجعل حياتنا لا تطاق، بل إنما جعل الزواج ليكون لنا عوناً على الحياة، وليكون لنا ميناء ضد العواصف، وملجأ في الأعاصير، وتعزية في الآلام. جُعل الزواج ليعطينا السعادة في امرأة.

كم من الأغنياء، بعد زواجهم من نساء أكثر غنى منهم، وبعد مضاعفة ثرواتهم، أضاعوا، في يوم زواجهم هدوءهم وسعادتهم، وجعلوا من موائدهم معتركات، وانقلبت أيامهم خصومات وحروباً متواصلة! وعلى العكس من ذلك كم من فقراء عقدوا زيجات على نساء أشد فقراً، استمروا ينعمون بالسلام مع زوجاتهم ويتذوقون طعم السعادة في دفء نعمة الله، في حين أن جيرانهم الأغنياء، وهم في وسط الثراء والفخفخة، يلعنون الساعة التي اقترنوا بها بنسائهم، ويتمنون لأنفسهم الموت، حتى ينعتقوا من شقاء الحياة الحاضرة! أجل هذا هو باطل الغنى عندما لا يكون المرء قد ضمن فضائل امرأته وحسن صفاتها.

ولكن لماذا التكلم عن السلام والاتفاق عندما نرى غالباً، حتى من ناحية المال نفسه، الذين اتخذوا امرأة لأجل غناها، لم يجنوا منها سوى الضياع الكامل لثروتهم؟ فغالباً يكونون قد ضحوا للمهر كل مالهم، ثم يغشاهم الموت فجأة، ويجب أن يتركوا كل هذا المهر لأسرة الزوجة، ويضيعوا، مع المهر، كل المال الذي خصصوه. وكما أنه في حال الغرق، لا يكاد الإنسان يخلص جسده، بعد ألف جهد، وبعد أن يكون قد فقد كل شيء يحمله، كذلك الحال في مثل هذا الزواج. لا يكاد الإنسان ينجو بحريته بعد أن جهد، وبعد أن يكون قد قضى حياة خصومات ومصارعات وسباب وشتائم ودعاوى، وبعد أن يكون قد خسر ثروته وهدوءه وسعادته.

وبصورة ثانية، كما أن التجار الطماعين الجشعين يُستدرجون إلى خسارة كل شحنتهم مع خسارة مركبهم أيضاً، لأنهم اثقلوا، بغير حساب وتقدير، مركبهم بالبضائع التي ينوء بها، كذلك هؤلاء المحاسبون الجشعون الذين يجدون في الزواج تكديساً كبيراً للأموال، ولا يرون في المرأة سوى مضاعفة الثروة، يخسرون في يوم واحد وبنفس الوقت ثروتهم الخاصة، ومال نسائهم.

فلا نفحص إذن في اختيار الزوجة، عن أموالها، بل عن أخلاقها. هل هي لطيفة وديعة؟ هل هي أهل للزواج؟ هل هي حكيمة؟ ورب امرأة حكيمة لطيفة متزنة في تصرفها وكلامها، يمكن أن تكون فقيرة تنتج من الأعمال في فقرها أكثر مما تنتجه أخرى في غناها، في حين نجد امرأة مخاصمة بدون اتزان وبغير حشمة، يمكن أن يكون لها كل غنى العالم، تكنس هذا الغنى أسرع مما تكنس الرح الغبار، وتسرع في إغراق زوجها في الفقر وفي الشقاء.

فلا نفتش إذن عن امرأة ذات مال، بل عن امرأة تعرف أن تستعمل هذا المال. ولنتساءل قبل كل شيء عن هدف الزواج، ولنتذكر لماذا رتب لنا الله الزواج، ولا نسأل عن أي شيء آخر. ما هو هدف الزواج؟ لماذا أعطانا الله الزواج؟ إن القديس بولس يقول لنا: "فليكن لكل رجل امرأة لكي تجتنبوا الزنا". لا يقول "لكي تجتنبوا الفقر" أو "لكي تحصلوا على الثروة" بل "لكي تجتنبوا الزنا". لكي نرضي شهوة الجنس، لكي نرضي الشهوات الطبيعية، ولكي نرضي الله في اقتصار المتزوجين كل على امرأته.

انظروا فيما يجلب لنا الزواج. هذه هي ثماره ومنافعه. فلا نهمل إذن ما هو ثمين فيه في سبيل الأقل أهمية. الفضيلة هي كنز أين منه كنز الثروة؟! عندما يتخذ أحدنا امرأة، فالهدف الأول والعام من هذا الزواج يجب أن يكون اجتناب الخطيئة وحفظ النفس من الزنا. الزواج يجب أن يساعدنا على تلطيف حواسنا، وسيكون كذلك عندما نحسن اختيار المرأة التقية الحكيمة الصالحة للزواج.

إن الجمال لغير فضيلة يمكن أن يجذب الرجل مدة عشرين إلى ثلاثين يوماً، ولكن جذبه لا يذهب أبعد من هذا المدى ومن ثم، وتحت تأثير تراكم العيوب يفقد الجذب فعله ويسقط. أما جمال النفس، فعلى العكس من ذلك، ليس عليه خوف من مد الزمن. وكلما وفق المرء على مقدار فضائل المرأة كلما ازداد تعلقه بها، وكلما ازدادت حرارة المحبة لها. وعلى هذا النحو إذا توطدت بين الاثنين محبة رصينة وعميقة فلا يمر بينهما حتى خاطر الطلاق الفاسد، ولا حتى فكرة الطلاق نفسها تطرق فكر من يحب امرأته حقيقةً، ويحيطها دائماً بعطفه وحنوه، ويجتذب، بأمانته نِعَم السماء وبركاتها على بيته.

ولنتأمل في كيف كانت الروابط تقوم قديماً بين آباء العهد القديم، لنرى أنهم كانوا يفتشون في الزواج عن الفضيلة لا عن الغنى. وإليكم المثال الواحد من تلك الأمثلة ليعطينا الدليل على ما نقول:

"وكان ابراهيم قد شاخ وتقدم في الأيام فدعا أكبر خدامه والمتقدم فيهم وقال له: ضع يدك تحت فخذي، واحلف لي بالرب إله السماء والأرض ألا تختار لولدي إسحق امرأة من الكنعانيين الذين نسكن بينهم، بل اذهب إلى البلاد التي ولدتُ فيها، واذهب إلى عشيرتي، ومن هناك ستختار زوجة لولدي" (تك 24: 1-4). هلموا لنتأمل بحكمة هذا الأب البطريرك واهتمامه الكبير في أمر زواج ابنه. لا يكلف، شأن أهل العصر الحاضر، وسطاء السوء وزبانية الشبهة، والعجائز المشعوذات، بل يكلف خادمه الخاص. وهذا من أكبر البراهين على تقوى هذا البطريرك القديس الذي عرف أن يجعل من خادمه أهلاً لمثل هذه الثقة.

وليس يطلب بعد هذا، لولده امرأة غنية ولا امرأة جميلة، بل امرأة يكون أصلها العربون المؤكَّد لفضيلتها. ولأجل هذا فهو لا يتردد أن يكلف خادمه سفراً طويلاً بعيداً عن محل إقامته.

ولنتأمل من جهة ثانية، كمال هذا الخادم! فإننا لا نسمعه يقول (مثلاً): بماذا أنت تأمرني؟ كم من الشعوب حولك، وكم من البنات عند رجال أغنياء، وكم من أحساب وأنساب شريفة! وأنت ترسلني إلى بلد بهذا البعد، وإلى أناس لم تسبق لي بهم معرفة؟ إلى من توجهني؟ إلى من تعرفني؟ ماذا أفعل إذا نصبوا لي فخاخاً وإذا حاولوا أن يغشوني؟ ليس أهون عليك أن تأخذ أي شيء ما عدا ما لا تعرفه، ومن لا تعرفه.

إنه لا يقيم أي مانع من مثل هذه الموانع أمامه، وكل هذه الصعوبات لا يحسب لها حساب عنده. ولكن هناك مسألة تبدو له رئيسية، لا بد له أن يقولها لسيده. والسؤال الذي يطرحه يشهد على ذكائه وحكمته. ما هي هذه المسألة؟ ماذا يسأل سيده؟ "قال له: إذا لم ترد المرأة أن تأتي معي هل يجب أن أذهب بابنك إلى البلاد التي أتيت منها؟ أحذر هذا، أجابه إبراهيم. احذر أن تذهب بابني إلى هناك. إن الرب إله السماء والأرض الذي جعلني أترك بيت أبي وأرض وطني حيث كنت أقيم، والذي أقسم لي أن يعطيني هذه الأرض لي ولنسلي، هو يرسل لك ملاكه ليقود خطواتك ويرافقك في سفرك".

يا له من إيمان! إن إبراهيم لا يعهد بهذا الأمر الخطير إلى أصدقائه، ولا إلى أقربائه، ولا إلى أي إنسان، بمرافقة خادمه. إن الله هو الذي يتولى حراسته ومرافقته بواسطة ملاكه في سفره. ولكي يدخل خادمه في شركة إيمانه، لا يقول له على بسيط الحال: "إن السيد إله السماء والأرض"، بل يضيف: "الذي أخرجني من بيت أبي" كأني به يريد أن يقول: "تذكر أي سفر طويل كان علينا أن نتكلف مشقاته! وتذكر كيف أننا بعد أن تركنا أرض أهلنا، صادفنا في هذه الأرض الغريبة شعوباً أكثر منا، وكيف أننا بالتالي رأينا ما كان مستحيلاً محققاً".

وحينما قال: "... الذي انتزعني من بيت أبي"، لم يرد أن يظهر له قدرة الله، بل تعهد الله والتزامه –إذا جاز القول- أمام ابراهيم. فكأنه يريد أن يقول له أن الله هو البادئ معنا بوعده لنا. هو نفسه الذي قال لي: "سأعطيك هذه الأرض، لك ونسلك من بعدك". فعلى أبسط الاحتمال إننا لو لم نكن مستحقيها، فمن أجل كلامه، ومن أجل إتمام وعده، يجب أن يكون معنا، وأن يسهل مهمتنا وأن يحسن مآلنا.

على هذه الكلمات يطلق خادمه في سفره. وحين وصل الخادم بدوره إلى تلك الأرض البعيدة لا نراه ينزل عند أحد من سكان المدينة، ولا يتعاطى مع رجالها بشيء، ولا يسأل النساء. بل كإنسان ثابت على إيمان سيده، يتوجه إلى رفيق سفره الوحيد الذي أعطاه إياه الله. إليه وحده يتوجه وانتصب وافقاً وناجاه قائلاً: "يا رب إله سيدي ابراهيم أنت وجِّه اليوم خطواتي".

ولنلاحظ أنه لا يقول يا رب يا إلهي، بل "يا إله سيدي ابراهيم" كأنه يريد أن يقول: "أنا لست شيئاً، أنا لست سوى خادم فقير. وإنما أنا أتذرع بسيدي ليس من أجلي أنا، من أجله أتيت إلى هنا لأكمل هذه المهمة، واعتباراً لفضيلته، تكرم اللهم بمساعدتي على إنجازها".

ثم أنه لكي يبرهن أنه لا يعتبر مساعدة الله كشيء متوجب يضيف قائلاً: "وأشفق اللهم على سيدي لإبراهيم" كما لو كان يقول: "ولو كان لنا ألوف من الاستحقاقات، فإنما نرجو الخير من فضلك، ومن صلاحك نتوقع الحسنة، لا دين لنا عندك، ولا واجب لنا عليك". وما هي صلاته؟ قال: "ولما وقفتُ على تلك العين، إذا بنات المدينة خرجن لاستقاء الماء قلت في نفسي: إن الفتاة التي أقول لها أميلي جرتك حتى أشرب، فتقول اشرب، وأنا أسقي جمالك أيضاً، تكون هي التي عينتها لعبدك أسحق، وبها أعلم أنك صنعت رحمة إلى مولاي".

لاحظوا حكمة الخادم في العلامة التي اختارها: إنه لم يقل "الفتاة التي أراها في عربة تجرها الجياد ووراءها حاشية من الخصيان، وتحيطها طائفة من الخدام، في باهر جمالها، وعنفوان صباها، تكل ستكون نصيب سيده اسحق"، كلا، بل "ان التي أقول لها أميلي جرتك حتى أشرب".

* ماذا أنت فاعل يا هذا؟ أفي هذا تفتش عن زوجة لسيدك: امرأة عادية تجيء لتستقي ماء، ولا تتردد ولا تتوقف في أن ترد عليك الجواب وتتحدث معك؟
* بدون شك. إنه لم يبعثني لأفتش له عن امرأةِ غنى ومجد، بل عن امرأة فضيلة. فكثيراً ما نرى في مثل مستقيات الماء أمثلة فضيلة، في حين نجد في النساء المتراخيات النائمات على الغنى والثروة ممتلئات من المعايب والرذائل؟
* وهلا قلت لنا فيمَ عرفت فضيلتها؟
* في العلامة التي ذكرتها.
* وأية علامة؟ رجوتك أن تقول لي.
* علامة باهرة لا يتطرق إليها الشك: أعني فضيلة الضيافة. وهذه العلامة تكفيني. وسيكون منها البرهان الذي يلزم للدلالة على الفضيلة. والفتاة التي تكون لها هذه الفضيلة، إلى حد أنها لا ترفض أية خدمة، هي المثال الذي أفتش عليه. تلك كانت أفكار وخواطر ذلك الخادم الطيب، إذا لم تكن عباراته بالذات.

ولا يطلب الخادم الطيب في الفتاة فضيلة الضيافة بغير أسباب جوهرية. فهذه الفضيلة كانت خصوصاً من أكبر الفضائل في البيت الذي نشأ فيه. وكان عليه قبل كل شيء، أن يجد امرأة متشربة بذات المشاعر التي عند سادته. وكأني به أيضاً يقول: "إني سأدخلها إلى بيت مفتوح دائماً للمسافرين، ولا أريد أن يكون عندها مغايرة لهذه الضيافة أو خلاف فيها، فيكون ابن سيده منفتحاً لضيوفه وكريماً من جهة، ومن الجهة الأخرى تكون امرأته بخيلة تتعرض لأضيافه وأصحابه، كما يحدث غالباً في كثير من البيوت.

ولهذا فأريد أن أعرف قبل كل شيء، إذا كانت لها الفضيلة ذاتها.

لأنه من هذه الفضيلة ينبع لنا خير كثير، كما أنا متأكد. ففضيلة الضيافة هي التي جَلَبَتْ لسيده ولداً في كبره. وهي التي أعطته أفراح الأبوة، وبفضلها استطاع أن يضحي العجل المسمّن، أن يأخذ ابنه بين يديه، وأن يعجن طحين الذبيحة، وأن يتلقى من الله الموعد بأن ذريته ستكون كنجوم السماء. هذه الفضيلة هي التي كانت مصدر خيرات وبركات لبيتنا، وهي التي أريد أن أفترض وجودها قبل كل شيء".

ولنلاحظ أن العلامة الحقيقية لهذه الفضيلة ليست في أن نعطي من يطلب منا ماء ليشرب بل أن نعطيه أكثر مما يطلب. "وما كاد ينتهي من صلاته حتى رأى، كما يقول الكتاب، رفقة خارجة من المدينة"، متحققاً في ذلك قول الكتاب في كلام أشعيا النبي: "حينئذ تدعو فيستجيب الرب، ونستغيث فيقول ها أنذا" (أش 58: 9). تلك هي صلاة القديسين. لا يكادون يفرغون من الطلب حتى يشعروا بأن الله قد حقق طلبهم.

وإذن فأنتم أيضاً يا طلاب الزواج لا تعتمدوا في طلبكم على البشر، ولا تعتمدوا على النساء اللواتي هي تعاسة الآخرين، واللواتي لا يفتشن إلا على ملء جيوبهن. توجهوا إلى الله، واعتمدوا على الرب فهو لا يستخف بطلبكم ولا يتوانى عن عونكم. وقد وعدكم هو نفسه قائلاً: "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذا كله يزاد لكم" (متى 6: 33).

ولا تقل لي يا هذا: كيف أتوجه إلى الله وأطلب منه؟ كيف أستطيع أن أراه، وأن أتكلم معه، وأن أتحادث معه وأفاوضه؟. هذا كلام من ينقصه الإيمان. لأن الله يستطيع، فوراً ومن غير أن يسمعك صوته، أن ينيلك ما يريد، كما فعل في مثل هذه الحالة التي نحن بصددها. "لم يكد ينهي صلاته حتى أبصر رفقة خارجة من المدينة، وهي ابنة بتوئيل بن ناحور الذي ولدته له ملكة. والفتاة كانت تحمل جرتها على كتفها وكانت جميلة جداً. وكانت بكراً لم يعرفها رجل". لماذا تكلمنا عن جمالها يا هذا؟ ذلك لكي أخرج لكم جيداً صورة عن طهارتها وجمال نفسها. الطهارة هي شيء يستحق الإعجاب، ولكنها إذا اقترنت بالجمال، فإنما تستحق الإعجاب أكثر. ولهذا، فإن الكتاب المقدس، لكي يصور لنا عفة يوسف جيداً، يعلمنا قبلاً أنه كان جميلاً جداً: "كان وجهه جميلاً جداً وكان في عنفوان جماله". وهكذا يحدثنا الكتاب عن طهارتها حتى يظهر لنا أن جمالها لم يمنعها من البقاء على عفتها.

فالجمال تبعاً لهذا، ليس من شأنه أن يحمل على الزنا، كما أنه ليس من شأن الشناعة أن تحمل على العفة. بل وكم من النساء أعطين إلى عذريتهن، وهن في زهرة جمالهن، بهاءً وهيبةً! وكم من النساء على العكس من هذا، بغير حسن وجاذبية، عشن في الخطيئة وأضفن إلى بشاعة النفس، وإلى قباحة منظرهن عار الزنا والفجور. فالرذيلة والفضيلة لا تتوقفان على جمال الجسد، بل على إرادة النفس.

وليس لغير سبب أن الكتاب المقدس يدعو رفقة عذراء مرتين. فبعد أن قال: "وكانت العذراء جميلة". عاد فذكر، فعلاً، في موضع آخر: "وكانت الفتاة عذراء لم تعرف رجلاً".

وفي الواقع، هناك كثير من الفتيات قد حفظن، وإلى حد ما، عذرية الجسد، ولكنهن قد فقدن عذرية النفس، ومسلكهن ليس فيه شيء من التهذيب، يقضين أيامهن في الظهور خارج البيت، يسعين إلى كل جهة في اجتذاب العاشقين، يحاولن أن يثرن أنظار الشبان، وأن ينصبن لهم الفخاخ، وأن يقدنهم إلى حافة الهاوية. ولكي يعلمنا الكتاب أن رفقة لم تكن من هذا النوع، وأنها كانت تجمع بين بتولية النفس وبتولية الجسد، يقول لنا: "إنها كانت عذراء لم يكن لأي رجل علاقة معها".

ومع هذا، فلم تكن تنقصها لا الأسباب ولا المناسبات. كانت تتمتع قبل كل شيء بجمالها. ثم أن أشغالها لم تكن تمسكها في البيت. ولو أنها كانت مثل فتيات هذه الأيام، ودائماً في راحتها، لا تنزل إلى السوق، ولا تشارك في الحياة العامة، ولو أنها لم تكن تترك بيت أبيها إلى الخارج، لما كان من عظيم المديح لها أن يقال عنها إنها لم يكن لأي رجل علاقة معها. ولكن عندما نراها كل يوم تخرج من بيتها إلى الساحة، وتذهب إلى العين لتستقي لا مرة ولا مرتين بل مراراً، وتبقى رغم هذا كله بدون علاقة مع الجنس الآخر، فهذا ما يجعلنا نقول إنه ليس مديحاً بسيطاً مثل هذا المديح.

إذا رأينا، في أكثر من واقعة، أن فتاة قد تكون بغير جمال ولا جاذبية، تصحبها الخوادم العديدات، في ظهور نادر، إلى الأماكن العامة، فتلقى هناك دمار فضيلتها في مرة واحدة، فكيف لا يدهشنا أن نرى فتاة تخرج، كل يوم، وحدها من بيت أبيها وتذهب لتستقي ماء من العين العامة حيث تستطيع أن تنشئ علائق وكل نوع من الملاقيات وتبقى مع ك هذا التردد الدائم، ومع كل جمالها وفتنتها ورغم اختلاط الذاهبين والعائدين من غير تغير أو تبدل في حالها مطلقاً، كما تبقى مطلقاً طاهرة نفساً وجسداً وتحفظ عذريتها خيراً من بنات الخدور وتطبق بالضبط كل الشروط التي يطلبها القديس بولس: "لكي تكون قديسة نفساً وجسداً" (1كور 34:7).

ويتابع الكتاب المقدس قائلاً: نزلت الفتاة "إلى العين وملأت جرتها وصعدت". وعندئذ يسرع الخادم الطيب ويقول لها: "أعطني قليلاً من الماء لأشرب"- بطيبة خاطر يا سيد- أجابت الفتاة. وأسرعت وأنزلت جرتها على كتفها وسقته. ثم قالت "أستقي لجمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب"، وأسرعت وأفرغت جرتها في المسقاة، وأسرعت أيضاً إلى البئر لتستقي، فاستقت لجميع جماله.

يا لها من أمثولة في البذل العاجل مع التحفظ! أمثولة تقدمها لنا رفقة في أفعالها كما في أقوالها! لأنك في هذه الحال لا تجد التحفظ يسيء إلى العجلة، ولا العجلة تضر بالتحفظ. فليست هي التي تبادر أولاً، وتتوجه إلى الرجل بالكلام، وهنا ترى تحفظها. ولكن عندما طُلبت منها الخدمة وعمل المعروف، فلا نراها ترفض أو تتردد بل نرى كرمها ومروءتها.

فلو أنها أسرعت هي أولاً وبادرت الرجل بالكلام، لجاز لك أن تؤاخذها على التسرع والجرأة. ولو أنها رفضت أن تقبل الطلب، لنَسَبْتها إلى القساوة وقلة الإنسانية. فقد عرفت أن تجتنب هذين المأخذين. تحفظها لم يمنعها من أن تضاعف عطاءها، وعطاؤها لم يعب كمال تحفظها. فقد حوت هاتين الفضيلتين في أتم كمالهما: أن تظهر تحفظها كفتاة منتظرة أن يطلب إليها العطاء، وأن تجيب على الطلب بالبذل العاجل السريع.

وليس المهم أن يكون العطاء عطاء ماء أم غيره. الإحسان لا يقاس بقيمة العطية بل بأسلوب العطاء. وإن الله لن يُغفل أجر من أحسن بشربة ماء بارد فقط. ومدح عطاء فلسي الأرملة أكثر من جميع التقادم، لأنها أعطت كل ما عندها. وهنا قدّمت الفتاة إلى الخادم كل ما كان يمكنها أن تقدمه.

ولا تحسب أن الكتاب المقدس يذكر لنا بغير سبب اهتمامها وإسراعها بالعطاء، وكل هذه التفاصيل المثيرة الاهتمام. وهذا إنما كان بقصد إظهار صدور فعلها عن قلب طيب. لا شيء يجبرها ولا شيء يلزمها كما أنه لا شيء يتعبها ويكلفها كثيراً. ولا تقل إن هذا شيء قليل الأهمية. فكم من مرة طلبنا من أحد المارة أن يتوقف لحظة ويعيرنا مصباحه لنوقد مصباحنا، أو أن يعطينا قليلاً من الماء لنشرب، فنقابل بالرفض، إذا لم أقل بالشتم أيضاً!

وهنا، فإن الفتاة لا تحني جرتها فقط للخادم ليروي عطشه، بل تتكلف بسقاية كل جماله غير متراجعة أمام عناء أكثر. وبكلمة واحدة، قد أتمت كل واجبها في الإحسان بكل طيبة خاطر، لأن فضيلتها لا تلمع بالخدمة التي تقدمها فقط، بل بالمروءة التي تُقدَّم بها هذه الخدمة.

تدعو بـِ "يا سيد" رجلاً لم تكن تعرفه، ولم تكن قد رأته إلا للمرة الأولى. وكما أن ابراهيم حين كان يقوم بواجب الضيافة، لم يكن يسأل أضيافه: "من أنتم؟ ومن أين أنتم؟ ومن أية عشيرة أنتم؟ ومن أين قدِمتم؟"، بل كان يكتفي بأن يتمم واجبه، كذلك كنته المستقبِلة لا تقول للخادم: "من أنت؟ وما هي عائلتك؟ وما حاجتك عندنا؟"، بل إنها تقوم بواجب الضيافة ولا تهتم بغير ذلك.

إن تجار اللآلئ والذهب لا يهتمون إلا بشيء واحد أن يقوموا بتجارة حسنة، ولا يهتمون لحال الشاري وصفته. وهكذا الحال حال هذه الفتاة. تعرف أن عليها أن تمارس فضيلة ولا يهمها إلا أن يكون لها كل استحقاقات الفضيلة.

كانت، تفهم بعد هذا، أن ذلك الغريب كان متحفظاً، وأن ما يطلبه زيادةً على ذلك هو حسن ضيافة، وتكرم لا يثقل عليه. وإذا كنا نريد أن نضايقه بأسئلتنا، ونطرح عليه فضولنا، سيتهرب وسينغلق على ذاته، ولا يقترب منا إلا بخوف. وهكذا هنا لكي لا تغير طريقه، تعمل، كما عمل إبراهيم الذي اكتفى بأن يقوم بواجب الضيافة من غير أن يوجه أسئلة مزعجة وبلا تمييز إلى أضيافه، وبم يكن يترقب من خدمته سوى الوعد بالمكافأة على فضيلته.

وانظر كيف استقبل في بعض الأيام ملائكة في بيته ولو أنه وجه إليهم أسئلة ، لكان استحقاقه أقل مما كان. لأن ما يثير إعجابنا هو أنه قَبِل في بيته أناساً لا يعرفهم وليس فقط أنه قبل الملائكة في بيته. ولو عرف من كان يستقبل لما تأثرنا كثيراً بأريحيته تلك، لأن كرامة ضيوفه تحرك المروءة في أقسى القلوب البعيدة عن الإنسانية. وأن ما يحرك شعورنا هو أنه قَبِلَ الملائكة بهذا الإكرام، وهو لا يعلم إلا أنهم رجال عاديون وعابر سبيل.

وهذا ما جرى مع كنته المستقبلة. لم تكن تعرف إلى من تصنع المعروف، ولم تكن تعلم مقصد الرجل من سفره، أو أنه كان قادماً ليطلب يدها. ولم يكن في ذهنها إلا أن صنيعها كان مع مسافر عادي غريب. وهكذا فتكون فضيلتها واستحقاقها في أنها قدمت خدمة، بمروءة وسخاء إلى إنسان لم تكن تعرفه من قبل.

وكل هذا فعلته بتواضع وتحفظ مدهشين بغير جراءة ولا تسرع، وفي لياقة كاملة. وهذا ما أراد الكتاب المقدس أن يظهره لنا عندما يقول: "وكان الخادم يتأملها بصمت لينظر هل أنجح الرب طلبه، وختم قصد سفره". ماذا يعني: "كان يتأملها"؟ كان يتفحص حركاتها وتصرفها، ومشيتها، ونظراتها، وكلامها، وبكلمة واحدة: كل شخصيتها، لكي يمسك من حركات الجسد صفات النفس.

وعلى كل حال لم يرد أن يكتفي بالبرهان الواحد بل كان يريده برهاناً آخر على أخلاقها. عندما أعطته ليشرب قال لها أيضاً: "بنتُ من أنت، قولي لي، وهل يوجد مكان أنزل فيه في بيت أبيك؟". وماذا تجيب الفتاة؟ تعرِّفه بلطف، وبغير تردد، عن أبيها. ولا تجيبه بامتعاض مثلاً: "من أنت حتى تطلب مثل هذه المعلومات، وأن تطرح عليّ مثل هذه الأسئلة الغير الرصينة عن أهلي وبيتي؟". قالت له: "أنا ابنة بتوئيل ابن ملكة الذي ولدته لنا حور. ويوجد في بيتنا كثير من التبن والعلف، كما يوجد في بيتنا مكان لتنزل فيه".

وهنا أيضاً، كما في موقفها من طلب الماء، تعطي أكثر مما يطلب منها. قبل قليل، لم يطلب منها الرجل إلا ليشرب هو، فأظهرت استعدادها إلى أن تسقي جماله. والشيء نفسه يحدث هنا: الخادم يطلب مأوى لنفسه فقط، فتقدم هي، فوق هذا، التبن والعلف، ولا تزيد. فهي تدعوه وتقتاده إلى بيت أهلها رغبة منها في أن يكون لها كل استحقاقات الضيافة الممكنة.

لا نعر أذننا إلى هذه القصة كإلى شيء لا يخصنا ولا يتعلق بنا، بل فلندخل إلى ذواتنا ولنقابل بين مسلكنا ومسلك هذه الفتاة، حتى نرى الفرق بين فضيلتنا وفضيلتها. إذ قد يغلب على تصرفنا أن نستقبل، عابسين، أقرباءنا ومعارفنا، وإذا اتفق أن تطول إقامتهم يوماً أو يومين، تململنا من وجودهم. أما رفقة، فمع أنه كان عليها أن تؤدي خدمة إلى رجل غريب لم تكن تعرفه أبداً، كما فرحت في أن تستقبله. وإذا شئت فقل إنها حملته حملاً على استضافة أهلها، ولم تتراجع أمام ثقل الخدمة له ولكل قافلته.

وها هو الخادم وقد حل ضيفاً عليهم، فلنلاحظ الآن الحكمة التي يبديها. حين كانت رفقة تقدم له الطعام قال: "إني لن أذوق طعاماً قبل أن أحصل على ما أقوله". لاحظوا كيف كان منشغل الفكر دائماً بواجبه. ولاحظوا احتقاره لكل شيء خارج هذا الواجب.

ثم يسمحون له بالكلام. ماذا عساه يقول؟ هل ترى يقول أنه مولى لسيد وجيه عالي المنزلة يكرمه جميع الناس، ويحتل المقام الأول في البلاد التي يسكنها؟ كان بإمكانه أنه يقول مثل هذا وبحق: تلك حقيقة، فإن الناس كانوا يعتبرون إبراهيم كملك لهم. ولكن الخادم لا يقول شيئاً من هذا. لم يقل إلا ما هو حسن في عيني الرب، مهملاً ما يمكن أن يظهر حسناً في أعين البشر.

قال: "أنا خادم لإبراهيم. والرب قد بارك مولاي جداً فعظُم. ورزقه غنماً وبقراً وفضة وذهباً". وإذا كان قد قدم بالذكر مقتنياته، فلم يفعل لكي يعرض غنى سيده بل لكي يظهر تقواه. وإذا امتدح سيده، فليس ذلك لكي يخبرنا أنه غني بل لكي يقول أن الله هو الذي أعطاه مكافأة على فضائله.

ثم يتكلم عن عريس المستقبل فيقول: "إن سارة امرأة سيدي ولدت ابناً لمولاي بعد أن شاخت". وهنا أيضاً فإن قصة الولادة هذه تدلنا على أنه يعظم فيها شأن العناية الإلهية أكثر من تغيير نظام الطبيعة. وأنتم أيضاً عندما تريدون أن تختاروا زوجاً أو زوجة لأبنائكم اسألوا قبلاً عما إذا كان ذلك الزوج أو الزوجة يحظى بصداقة الله ونعم السماء. وإذا كان هذا الشرط موجوداً فكل الأمور الأخرى تتبعه، وإذا كان ناقصاً، فلو كانت لكم كل خيرات الأرض فقد فقدتم كل شيء.

ولكي لا يسألوه لماذا لم يختر امرأة من نساء بلده يضيف قائلاً: "وقد استحلفني مولاي قائلاً لا تأخذ لابني امرأة من بنات الكنعانيين الذين أنا مقيم بأرضهم، بل إلى بيت أبي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ امرأة لابني". ولا أريد أن أعيد عليكم كل تفاصيل هذه القصة لكي لا أتعبكم، فسأتجاوزها إلى تحليل الباقي.

بعد أن قص الخادم الصالح على أهل الفتاة خبر لقائه معها على العين وطلبه منها، وكيف قدمت له أكثر مما طلب، وكيف أن الله دبر ما حدث، بعد أن أعطاهم أقل التفاصيل، توقف عن الكلام. وعلى هذا الحديث لم يتردد سامعوه، ومن غير أي تأخير، كأن الله أملى عليهم موقفهم، عن أن يهبوا له ابنتهم. "هذا أم رمن قبل الرب، أجاب لابان وبتوئيل، وليس لنا أن نقول شيئاً. هوذا رفقة، سر معها، ولتكن زوجة لسيدك، كما أراد الرب". من لا يأخذه دوار الدهش، ولا يغرق في الإعجاب عندما يرى كم من العقبات الكبرى تسقط في طرفة عين!؟ من لا يعجب بموقف هؤلاء القوم الذين تخلوا عن ابنتهم لتسافر مع إنسان غريب مجهول، مع خادم بسيط سفراً بعيداً جداً عن البيت الأبوي وهي لا تعرف أبداً حماها ولا زوجها ولا إنساناً من الأناس الذين ستعيش بينهم، في حين أن مانعاً واحداً مما ذكرنا كان كافياً ليوقف الزواج. ومع هذا فلم يوقفه شيء. كل شيء انتظم باتفاق وسرور، وجعل الأهل ابنتهم بين يدي الخادم كما لو كانوا قد عرفوه من قبل دائماً، وكما لو كان قريبهم، وكما لو كان مولوداً معهم. فكما أن من يريد أن يعمل كل شيء بدون الله، وعلى الرغم من قلة الموانع والمصاعب التي يلاقيها، يسرع إلى المهالك والنوائب وكل نوع من التعاسة، على عكس ذلك تكون حال من يمشي بمعية الله وعونه. فعلى الرغم من كل العقبات والصعوبات التي في الطريق، يصل براحة وبسرعة إلى نهاية السفر. فلا نقم بأي عمل، ولا نتكلم شيئاً قبل أن يكون قد رجونا الله وتوسلنا إليه، على مثال الخادم الصالح، خادم إبراهيم، وقبل أن نكون قد أقمناه حافظاً لنا في كل مشاريعنا.

أما الآن، وقد تم اختيار العروس فلننظر كيف يتم العرس. هل نرى الصناجين والزمارين والطبالين والراقصات وكل آلات الطرب، ومواكب أعراسنا في هذه الأيام؟ لا شيء من هذا. الخادم يسير مع رفقة وحده، ومعه فقط الملاك الذي طلب سيده من الله أن يكون له رفيقاً للسفر. هذا كان معه للهداية ورفقة الطريق.

وها هي العروس تتقدم، ليس في وسط الضجيج والتزمير، بل في وسط البركات الإلهية التي كانت تنزل على جبينها وتشكل لها إكليلاً أكثر لمعاناً من كل اللآلئ.

تتقدم غير متشحة بثوب مذهب بل متشحة بالتواضع، والتقوى، ومحبة الله وكل الفضائل. تتقدم لا فوق عربة تحت الهودج الفخم، بل راكبة ببساطة على جملها. ذلك أن بنات تلك الأيام لم تكن لديهن كل فضائل النفس فقط، بل كانت لهن أيضاً كل الميزات الجسدية. فلم تكن أمهاتهن تربينهن، مثل اليوم، في وسط العطور والاستحمام المرخي الجسم. لم يكنّ يفْرقنهن في الأدهان والأصباغ والملابس الناعمة. فطبيعة حياتهن، إذا كانت أبعد من أن تضعف أجسادهن وترخيها، لم يكن من شأنها إلا أن تقويها وتصلب عودها.

ولذلك كان جمالهن حقيقياً ونضراً مثل الزهرة. ذاك كان الجمال الطبيعي لا الحسن المصنوع ولا المجلوب. لذلك كانت أجسادهن تتنفس العافية والمروءة، ولم تكن تعرف المرض والكسل. لم يكنّ يخشين العمل، وكن يعرفن أن يعرضن أجسادهن للتعب، وكن يقمن شؤونهن بأنفسهن.

ولهذا فقد كن مرضيات كثيراً لأزواجهن وكان أزواجهن يزدادون في التعلق بهن، لأنهم كانوا يرون فيهن نساء صحيحات النفس والجسم معاً.

وإذن فقد كانت رفقة تتقدم ببساطة فوق جملها وعلى رأس القافلة الصغيرة. وعندما اقتربت من البيت، رأت اسحق من بعيد، فقفزت عن مطيتها إلى الأرض. لاحظوا هذه الهمة وهذه الخفة في الحركات. تقفز هي بنفسها من ظهر الجمل إلى الأرض. هكذا كانت الفتيات، في ذلك العصر، يعرفن أن يجمعن بين شدة الأجسام وفضائل النفوس! "فقالت للخادم من هو ذلك الرجل الذي يتقدم في السهل للقائنا؟ -هذا هو سيدي" أجابها الخادم. فتجلببت بجلبابها. لاحظوا دائماً تواضعها وحشمتها ومروءتها. "ثم حدَّث الخادم اسحق بكل الأمور التي صنعها. فأدخلها اسحق إلى خباء سارة أمه، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها وتعزّى اسحق بعد موت أمه". وليس بغير سبب أن الكتاب المقدس يقول لنا أنه أحبها كثيراً وتعزّى بعد موت أمه. وإنما أورد هذا ليذكرنا بالفضائل التي حملتها معها رفقة، الفضائل التي أكسبتها قلب زوجها وحبه. وبالفعل فأي امرئ كان من الممكن ألا يحب امرأة في مثل تعقل رفقة واعتدالها ومروءتها وإخلاصها وحبها، امرأة فاضلة النفس وقوية الجسد؟!

**لا تصفقوا**

... لا تصفقوا... لم أتحدث إليكم لكي تصفقوا لي، بل لكي أنهض فيكم شعوراً نبيلاً وجميلاً. فأنتم أيها الآباء اتبعوا مثال هذا البطريرك القديس، وفتشوا لأبنائكم عن امرأة بسيطة وطبيعية. لا تركضوا وراء الغنى والنسب وجمال الجسد النادر، فتشوا عن جمال النفس. وأنتن أيتها الأمهات ربين بناتكن على مثال رفقة.

وفي أعراسكم واحتفالاتكم، يوم الزواج، اجعلوها تضيء بالبساطة والحشمة وأدب الكتاب المقدس. لا رقصات خليعة، ولا قهقهات فجّة، ولا كلام قبيح، بلا تزمير وتطبيل ولا أي شيء وثني، ولا أي شيء من مواكب الشيطان. أدعوا الله إلى أعراسكم واجعلوه سيد زواجكم. وإذا أنتم عرفتم أن تنظموا وحدتكم في الزواج، فلا يمكنكم أن تخافوا طلاقاً وانفصالاً، ولا شبهة الزنا، ولا فرصةً للحسد والخصام والنزاع. ستعيشون في سلام وفي وحدة كاملة حيث تزهر بنفس الوقت كل الفضائل، ولا يعكر صفو حياتكم شيء.

ففي وسط مثل هذا الزواج يمكن تنشئة الأولاد بسهولة في الفضيلة. وعندما يكون للمرأة كل المؤهلات وتعرف أن تجمع بين الحكمة والتواضع، فمن الغير الممكن لزوجها ألا يحبها ويتعلق بها حتى يجعل القلبين قلباً واحداً، والنفسين نفساً واحدة. وحين تكسب المرأة قلب زوجها تجد فيه العون الحاضر المتفاني في سبيل تربية أولاده، وتستنزل كل بركات السماء من اجل نموهم وتقدمهم. وإذا كان الله هو الذي يسود في العائلة، ويهيمن على تربية الأولاد، فلن يعرف التعكير سبيلاً إلى سلام البيت وسعادة العائلة.

وهكذا يستطيع الرجل، مع امرأته وأولاده وكل أهل بيته أن يقضوا حياة هادئة على الأرض وأن يصلوا إلى الملكوت السماوي الذي أتمناه لكم جميعاً بنعمة ومحبة سيدنا يسوع المسيح الذي له القدرة والمجد مع أبيه وروحه القدوس المحيي الآن وإلى جيل الأجيال آمين.

1. ابقَ العبد: هرب من سلطة سيده. [↑](#footnote-ref-2)